سلسلة
عندما نطق السُّراة

الأُسطورَة

توثيق حضاري

قسم الدراسات والبحوث

جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعيّة





بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الأسْطورةُ

توثيقٌ حضاريٌّ



الكتاب: الأسطورة .. توثيق حضاري

سلسلة: عندما نطق السراة

تأليف: قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



لجمعية التجديد الثقافية الاجتماعية
Tel: (+973) 17273787
Fax: (+973) 17274787
P.O.BOX 10493
Manama-Kingdom of Bahrain
www.tajdeed.org
E-mail: tajdeed@tajdeed.org

دار كيوان

للطباعة والنشر والتوزيع

الحلبوني – دمشق – سورية – تلفاكس: ٠٠٩٦٣ ١١ ٢٢١٧٢٤٠
E- Mail: Kiwanhouse@mail.sy

سلسلة عندما نطق السراة

الأسْطورةُ

توثيقٌ حضاريٌّ

قسم الدراسات والبحوث

جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

مملكة البحرين

ملاحظة هامة

تم الانتهاء من تأليف هذا الكتاب في سبتمبر ٢٠٠٥، ووزعت نسخ إلكترونية تجريبية منه عبر موقع جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية في مملكة البحرين عبر الرابط **www.tajdeed.org**

المقدّمة

إذا جاز لنا القول أنّ المؤسسات الغربية نجحت عبر مئات السنوات في فرض طرائقها في تفسير وتحليل الأحداث التاريخية ومكوّنات الشعوب والأمم عبر صياغة التاريخ وتوظيفه لخدمة مصالحها، فإنّ المصائب التي حلّت على العالم وأبرزها سيادة النظام الاحتكاري وانقسام العالم إلى عالمين والإنسان إلى إنسانين والحق إلى حقّين والمعيار إلى معيارين، أظهرت -أي المصائب- أنّها ليست بنجاحات بما خلّفته من أشكال الإخفاق في تقدير قيمة الحياة وقيمة الإنسان الحقيقية، بل وأثبتت فشل الغرب وتطفّله على التاريخ.

لقد صيغَ التاريخ وكُتبَت فصوله العامّة، ولكن مع شديد الأسف صاغته يدٌ دفعتها مطامع الرغبة في الهيمنة وخدمة مصالحها الخاصة، ثم فُرضَت الصياغة واعتُمدَت، وانجرف يردّدها بل ويتشدّق بها القاصي والداني بمن فيهم من وقعت عليهم المظالم جرّاء هذه الصياغة، وبسبب تلك الدوافع القصدية ابتعد كتّاب التاريخ الغربيون كثيرا عن الحقيقة، فبُنيَت معظم فصول التاريخ على الباطل وعلى الظنون كما يقول ويل ديورانت نفسه في كتابه "قصة الحضارة" الذي يعدّ الأكبر في كتب التاريخ الحديثة يقول: "معظم التاريخ ظنّ، وبقيّته من إملاء الهوى"[١]، ولكن هل كان التاريخ ملكا لأحد، أو بقية إرث له أن يتصرّف فيه كيفما يشاء حين تشاء له الظروف أن يمتلك موازين القوّة وخزانة الأسرار؟ ليس التاريخ ملكا لأحد، وإنّ التصرّف في التاريخ وإن حقّق مراد الطامعين في فرض نظرياتهم وفكرهم وبسط هيمنتهم على الشعوب فقد خلّف نتيجة مشوّهة كانت وليدة طبيعية للعمل المزوّر، نتيجة ترتب

---

[١] - ويل ديورانت، **قصة الحضارة**، ج١ ، ص١٣ .

عليها رؤية قاصرة للتاريخ ونظرة مخلّة لمراحل الإنسانية المختلفة، أدّت إلى سلسلة من التحليلات القاصرة والاستنتاجات المتخبطة، بل وخلّفت تفكّكا للإنسانية الواحدة وانفصالا صريحا عن أصولها بل ومحاولة لإفناء شعوب وإلغاء أمم بأكملها . فهل ما حدث من تلفيق بأيدي صنعة التاريخ الحديث سينطلي إلى ما لا نهاية؟ وهل ستستمرّ الشعوب في جهل تاريخها الحقيقي؟ أليس هناك أهميّة جوهرية تدعو الشعوب إلى إعادة اكتشاف تاريخها بعد سنوات طويلة قضتها في العتمة واجترار نظريات الغرب ومن خلفهم يهود العالم المتنفّذون؟ ألا يطالبنا المنطق بضرورة الرجوع إلى الوراء وكشف الحقيقة إن كنّا نرغب بالفعل في إنقاذ واقعنا وضمان مستقبل آخر ومصير مختلف عما نحن عليه اليوم؟

يقول المؤرخ الفرنسي الكبير بيير روسي صاحب كتاب "التاريخ الحقيقي للعرب": إذا كان مؤرّخونا المسلمون الأوائل قد أخذوا نظرتهم إلى التاريخ بذلك القصور المبستر فقد كانت لهم أسبابهم ومبرّراتهم الكافية، فهم من جهة كانوا يعملون على تكريس التوحيد الإسلامي فكان لزاما عليهم رفض وتجاهل كل ما سبق الإسلام من عقائد، ومن جهة أخرى لم يكن لديهم أي اطلاع على الحضارات القديمة إذ كانت هذه قد بادت وانطمرت شواهدها في التراب، فلم يكن المؤرّخون المسلمون قادرين على القفز فوق شروط عصرهم ومستواه العملي والمعرفي العام. أما في العصر الحديث بمناهجه العلمية المعاصرة ووسائله التقنية المتفوّقة، التي لم يكشف فقط عن الآثار المادية لحضارة الشرق القديم، بل كشف عن وحدة الأصل بين اللغة العربية ولغات منتجي الحضارة منذ أن بدأت، بدلالة وحدة الجنس والمنشأ والثقافة بين البشر الأوّلين وبين العرب. ويقول: ومازال المؤرّخون الغربيون الباحثون ومن بعدهم تلامذتهم العرب يقيمون القطع الحاد بين المرحلة الإسلامية وبين ما سبقها، وهو يكرّس تجاهلا متعمّدا للحقائق التاريخية التي تثبت نفسها الآن بالوثائق الصريحة، وهذا أمر يدفعنا إلى أكثر من مجرد الشك في دوافع الباحثين الغربيين ومقاصدهم، إنّما إلى إعادة بناء صورة شاملة للصيرورة الحضارية في الشرق[1].

---

[1] – بيير روسي وآخرون، **العرب إنهاء عصر الرق وتوحيد العالم**، ص ٢١٤.

إنّ الغايات سعت منذ البداية نحو فصل الأمّة في المنطقة العربية عن أصولها وتاريخها وتراثها وتشويش معالم وعيها بذاتها وكينونتها، وعلى أساس هذه الغايات رُسمَت الخطط لتفكيك الأمّة وتجريدها من الكثير من مصادر قوّتها وعزّتها ليسهل بعد ذلك اصطيادها وقهرها. واليوم علت الصيحات من هنا وهناك تطالب بإعادة النظر في التاريخ، وهي صيحات مشروعة تماماً لأنّ مطلب معرفة الحقيقة هو واجب في حدّ ذاته، فكيف إذا اقترن هذا المطلب بمصير أمّة بأكملها، بل وبمصير الإنسانية جمعاء؟ أمّا نحن – الأمّة– التي وقع عليها أكبر وأشنع عمليات الظلم والتحريف والتزوير عبر التاريخ الإنساني كلّه، فإنّ حاجتنا للمراجعة ضرورة مصيرية ويجب أن توضع في سلّم الأولويات، ويكفينا القول بأنّه إذا كان تعديل فكرة واحدة في منظومة تاريخنا قد تُحدث فارقاً كبيرا في تقديرنا لذواتنا وفي علاقاتنا مع أنفسنا ومع الآخر، فكيف لو تغيّرت الأفكار وصحّحت المفاهيم كلّها؟ وماذا لو أعيد الحقّ إلى أهله وأرجعت الأمور إلى نصابها، وتبيّن بالدليل والبرهان أنّنا كنّا في غفلة من أمرنا وأنّ هناك من كان يقف ساطيا على فكرنا متعدّيا على تراثنا مصادرا لمشاعرنا مخطّطا لنهبنا مع سبق الإصرار والترصّد؟ ألن يكون هذا دافعاً في إعادة الاعتبار لأمّتنا التي أعملت فيها معاول الهدم ووُسمَت بالهمجية والبربرية طوال القرنين الماضيين؟ ألن تمتلئ القلوب أملاً وتعود إليها نبضات الحياة وتنفض عنها حالة اليأس والإحباط التي أُريد لها أن تكون جزءا من نسيجها وكيانها؟ حتماً سيكون لنا بهذه المراجعة شأن آخر وربّما انتعاش وصحوة وقيامة من جديد، لأنّنا سنشهد التاريخ مباشرة، وهو سيشهد بعظَم هذه الأمّة وعظم هذه الأرض، وسيشهد بأنّ هذه الأرض هي مهد الإنسان ومهد دينه وعلمه، وسيعلن أنّها الأمة التي جُعلَت أمة وسطا وحمّلت الرسالة وتوارثت الأمانة خلال التاريخ كلّه، بها كانت البداية ومنها تكون النهاية، ونالت على أرضها وفضائها عناية الله ورعايته، وعهده بأنّها الأرض التي وعد الله أن يُورثها مَنْ يشاء من عباده الصالحين. ولن يكون ما نصبو إليه من مراجعة التاريخ إلا إذا اتّبعنا منهجية علمية جديّة تقبل تحمّل المسئولية رغم ثقلها وصعوبتها واستعداداتها لما يواجهها من أشكال الصدّ وردود الأفعال، منهجية تتّسم بالجرأة والبعد عن التردّد والخوف، منهجية تتّصف بالصدق والواقعية والموضوعية في تناول الأحداث وتفسيرها، وأخيراً منهجية متحرّرة من أيّة قيودٍ تأسرها أو تمنعها من كشف الحقيقة.

إنّ مراجعة التاريخ وإعادة التفتيش في موادّ تراثنا أمر جوهري نحن بحاجة إليه وبالأخص في هذا الوقت، لأنّنا بتنا منفصلين عن هذا التاريخ مشمئزين من مجرد ذكره بعد أن وُسم بالوثنية والخرافة، ومراجعتنا نحن لفصول تاريخنا القديم ضرورية لأجل أن نترسّم معالم الطريق الذي افتقدنا معالمه الأولى فضاعت علينا خيوط الاتصال مع آدم الأول ومع بني آدم ومع مسيرة إنسانية طويلة صاغ حلقاتها أناس صالحون، نحن اليوم بحاجة إلى معاودة الاتصال والمراجعة والنظر والتأمل واستخلاص العبر استجابة لنداء القرآن الكريم (**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا**)(الأنعام:١١) نحن بحاجة إلى إعادة قراءة للتراث والمدوّنات بعقلانية واحترام بعيدا عن أقوال المفسّرين والمترجمين، لدواعي عدّة، أوّلها كما قلنا سابقا رغبة منا في تصفّح أوراقنا بأنفسنا، لأجل أن نتولّى بأنفسنا فهم تاريخنا وتراثنا، فلا نبقى مردّدين وجامعين ما يلقى إلينا من غيرنا ممن ليس لهم صلة بهذه الأرض وهذا التاريخ، ومن يقدّمون لنا تراثنا ويقولون لنا من نحن وكيف كنّا وما شأننا، ثمّ ما هي حدودنا وماذا ينبغي أن نكون في حاضرنا ومستقبلنا، وبذلك نتحمّل جانبا من دورنا العلمي والحضاري المطالبين به، وثانيها تسليمنا بأنّ هناك مقاصد أراد الأوّلون تسطيرها تطالبنا هي الأخرى بمحاولة فهمها والتفريق بينها وبين الخرافات خاصة حين نجدها تلتقي مع مقولات مصادر اعتقاداتنا المقدّسة، فتلك المقولات لم تسطّر عبثا، وليس من أحد اهتمّ بمدوّنات الأوّلين ممن قطن هذه المنطقة إلا وأقرّ بأنّها تختزن علوما ومعارف راقية في غاية الأهمية وتتحدّث عن أسرار وخبايا مازال العلم يتخبط فيها وهو في حلّته الحديثة.

حين ندعو لمراجعة تراث آبائنا الأولين الذين سكنوا المنطقة العربية، منطقة انطلاقة الإنسانية العاقلة، ومهد التوحيد والحضارات، فإنّ ذلك يقتضي النظر والتدقيق في تراثهم بكل ما يتضمّنه من أبنية ومدّخرات ومدافن ومدوّنات، فكلّها تشهد بأنّ الإنسان القديم في جميع مناطق حضوره في الحضارات القديمة السومرية والبابلية والآشورية والمصرية والأوغاريتية قد تناول موضوعات مشتركة تشكّل المفاصل الرئيسية في خطّه الاعتقادي والعلمي عن الكون والإنسان، لذا فإنّ التعرّف على أساطير الأوّلين من أول المباحث وأهمّها لتبيّن واقع الإنسان الأوّل وبدايات

الأشياء، ولتكشف لنا كيف كان الإنسان في بداياته الأولى؟ وأيّ رسالة حملها؟ وماذا كان يعتقد؟ وكيف كان يفكّر؟ وما إنتاجاته؟ وما مستوى معارفه وعلومه؟

يعتني البحث بدراسة الأساطير القديمة، حيث يتناول في فصله الأول مقدّمة تعريفية عن الأساطير ونشأتها، والفرق بينها وبين الخرافات، وتعداد لأنواعها، ثم في الفصل الثاني يعالج علاقة الأسطورة بالتاريخ، ويجيب عن السؤال الأهم في البحث وهو: هل يمكن اعتبار الأسطورة مصدراً معتمداً من مصادر التاريخ؟ ولماذا؟ ثم يتعرّض الفصل نفسه إلى تعبير أساطير الأوّلين الوارد في القرآن الكريم ويمضي في محاولة للتعرّف على سرّ ذكر هذا التعبير في كتاب الله، وفي الفصل الثالث يطرح البحث آليات مقترحة لفهم الأساطير والتعرّف على أسرارها وفك أقفالها، ثم يقدّم بعض المحاولات والاجتهادات لتفسير عدد من الأسماء المشهورة في الأساطير على اعتبار أنّ الأسماء تشكّل مفاتيح الولوج لتفسير الأساطير وبالأخص مع ارتباط الأسماء في الأساطير باللغة العربية ولهجاتها القديمة.

الفصل الأوّل

مفهوم الأسطورة ونشأتها وأنواعها

تمهيد

اختلف المؤرّخون والباحثون في تحديد تعريف موحّد للأسطورة، وحينما أراد القديس أوغسطين أن يفصح عن ماهية الأسطورة قال: "إنّني أعرف جيدا ما هي، بشرط ألا يسألني أحد عنها، ولكن إذا ما سُئِلْتُ، وأردتُ الجواب، فسوف يعتريني التلكؤ"[1]. أمّا عند العامة من الناس فقد اكتنف هذا المصطلح حجم وافر من الغموض ما جعله يلقى مصيرا من الضبابية والتداخل مع مصطلحات أخرى، وصار من الطبيعي عزوف الناس عن ذكر الأساطير أو الرجوع إليها ناهيك عن نسبة الأفكار لها أو الاتّكاء عليها. يُراد من هذا الفصل أن يؤدي مهمتين أساسيتين، تكمّل إحداهما الأخرى، فهو من جهة يبحث في إمكانية خلق نوع من الوعي للأسطورة من خلال توضيح معنى الأسطورة وتحديد معناها لغويا ومفهومياً، ومناقشة نظريات نشأتها، ثم بيان أوجه التفاضل والتشابه بينها وبين الخرافة التي غالبا ما تختلط وتتداخل مع الأسطورة فتعدّان عند معظم الناس وكأنهما شيء واحد.

بالإضافة إلى ذلك، يسعى الفصل - من خلال قراءته لأشهر الأساطير- إلى محاولة اعتماد تصنيف علمي للأساطير مستندا على أمثلة مستمدة من تراث الأمّة العربية، فقد ارتأينا التركيز على الأساطير في المنطقة العربية، أي أساطير بلاد سومر وبابل وآشور ومصر وأوغريت، والأساطير الإغريقية التي انتحلت من تلك الحضارات، آخذين بعين الاعتبار أنّ أساطير تلك الشعوب امتلكت خصوصية برزت من خلال التجانس الواضح في مصدرها وغاياتها وأسلوبها وموضوعاتها وهيئتها، ومن خلال التمازج الحضاري الذي عاشته شعوب تلك البلدان طوال عهود مديدة، ثمّ لتحدّثها

[1] - ك.ك. رانفين، **الأسطورة**، ص٩.

بلغة واحدة هي اللغة العربية بلهجاتها القديمة السريانية أو الفينيقية، ونبغي من وراء قراءة الأساطير العربية المساهمة بنفض الغبار عن تاريخ المنطقة والسعي للتخلّص من عقدة التسليم بما قاله الباحثون الغربيون عن تراث آبائنا العرب الأوائل وأقوالهم وعقيدتهم لعلّنا بذلك نتمكّن من إعادة اللحمة بيننا وبينهم، وإرجاع حالة الانتماء لتاريخنا في جميع فصوله، فلقد كان علم التاريخ ساحة من ساحات الحروب غير المعلنة طوال الزمن الماضي، تمّ من خلالها تحقيق مطامع وغايات أفضت إلى تقطيع أوصالنا بأدوات بتر وتشويه وتزييف متعدّدة. في هذا الوقت نحن بحاجة إلى إعادة القراءة لمفردات هذا التاريخ، فذلك أمر ملحّ لا غنى عنه، والأساطير تقف في مقدّمة هذه المفردات وتعدّ نموذجا لحركة تغيير هويتنا وتدخّلا في رسم تاريخنا، ولا يفوتنا القول أن دراستنا للأساطير العربية لا يعني أبدا المصادرة على إمكانية الاستفادة من تراث الشعوب الأخرى ونتاجاتها، فنحن لا ننظر إلى تراث الإنسانية كلّه حاضره وماضيه إلا بعين التقدير والاحترام.

إن تحقّقت مهمتا الفصل، فإنّه يمكن اعتبار الفصل مدخلا وتمهيداً إلى الفصلين اللاحقين اللذين سيعتمدان بشكل رئيسي على ما رسمه هذا الفصل من صورة خاصة على صعيد الوعي بالأسطورة وجدوى دراستها وفهم معناها والإحساس بقيمتها.

أولاً - مفهوم الأسطورة

يتّفق المؤرّخون بأنّ الأسطورة تعود إلى أزمان سحيقة للتاريخ الإنساني قبل معرفة الكتابة بزمن طويل، فقد تمكّنت الحملات الغربية في العصر الحديث التي توجّهت للتنقيب عن الآثار في بلاد العراق والشام ومصر والتي ابتدأت مع نهاية القرن التاسع عشر من العثور على ألواح طينية ورُقُم وجدران معابد دُوّنت عليها رسومات ورموز وإشارات، وكُتبَت بأشكال مختلفة آخذة في التطوّر حسب المراحل الزمنية لتلك الحضارات، حيث عُرِفَت تلك المدوّنات بالأساطير. وتعتبر بلاد سومر أقدم الحضارات التي اعتنت بالتدوين والتسطير كما دلّت عليه المكتشفات، أما متى بدأ عصر الكتابة

الرمزية وأين فلا يُعرف حتى الآن، وفي التراث بأنّ **"أنوش هو أوّل من خدش الخدوش"**، وأنوش من سلالة آدم الإنسان الأول، اهتدى إلى النقش على الطين بعد أن لاحظ طباعة أقدامه على الأرض.

والأسطورة في اللغة العربية من سطر وهو بمعنى تقسيم وتصفيف الأشياء، فالأسطورة تعني الكلام المسطور المصفوف، ولا يشترط فيها أن تكون مدوّنة أو مكتوبة، ولكن بالضرورة هي الكلام المنظوم سطر وراء سطر، فتظهر مصفوفة كقصائد الشعر ما يسهل حفظها وتداولها ويحافظ على بنيانها وكلماتها، وعلى ذلك يقول المعاندون للقرآن "ما هذا إلا أساطير"، ولم يروا الأساطير مكتوبة، وإن أغلبهم ليس لهم علم بتدوينها بل هو علم تناقلوه شفوياً بسطورها المحفوظة.

وقد ظنّ بعض الباحثين أن الكلمة مقتبسة من اللغة اليونانية، يقول وديع بشور: "وكلمة "أسطورة" العربية مقتبسة من كلمة "استوريا" Historia اليونانية وتعني حكاية أو قصة، إلا أنّ كلمة أسطورة تعني حكاية غير حقيقية أو على عكس الحقيقة، بينما الكلمة ذاتها Historia تعني "تاريخ" "[١]. فهل الكلمة حديثة لم يُعثَر لها على أصل في معاجم اللغة العربية لكي يقال عنها أنّها يونانية!! في محيط المحيط: سطّر أي ألّف، وسطّر فلان أي أتانا بالأساطير[٢]. ومنها "السَطْر الذي يعني الخط والكتابة، ومنها أسْطُر وسطور وهو الصف من الشيء كالكلمات والشجر ومنها السُطُر وتعني الأقاويل المنمّقة المزخرفة .. الخ"[٣]، إلا أنّ أصل الفعل الصف من الشيء، ومنها الساطور الذي يقطّع اللحم ويصففه في شرائح، ومنها سيطر ومُسيطر وتقال في حال هيمن أحد على آخر وتمكّن من سلبه اختياراته فصار كأنّه موجّها في قالب أو في صف واحد لا يتمكّن من الحياد عنه، وعلى ذلك يقول تعالى: (**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**)(الغاشية:٢٢).

---

[١] - وديع بشور، **الميثولوجيا السورية** - أساطير آرام، ص ٩.

[٢] - بطرس بستاني، **محيط المحيط**، ص ٤١٠.

[٣] - **المنجد**، ص ٣٣٢، ٣٣٣.

فالكلمة عربية الأصل وجذرها من الفعل الثلاثي "سطر"، وباعتبار أنّ لكلّ كلمة مشتقة (في العربية) جانبين: الأول مادتها والثاني صيغتها أو وزنها، فمادة كلمة "أسطورة" تقوم على جذر يدل على المعنى العام الذي يجمع بين سائر المشتقات منه كما ذكرنا، أما وزنها: فمن أوزان لغتنا العربية فأسطورة على وزن "أُفْعولة" كأحدوثة وألعوبة وغيرها، وجمعها "أساطير" على وزن "أفاعيل" كأحاديث وألاعيب، وهذا ما يؤكّد أنّ كلمة أسطورة هي أحد اشتقاقات الجذر الثلاثي (**س ط ر**) على وزن أُفْعُولَة، ما يعني أن الرأي المذكور سابقا قلب الحقيقة تماماً، وهو من آثار فرض آراء الغربيين وتفسيراتهم على تراثنا وتاريخنا، فالكلمة عربية في أصلها عبرت إلى شبه الجزيرة اليونانية مع حركة القدماء العرب وهجرتهم، وبالتحديد على يد الفينيقيين الذين استوطنوا سواحل البحر المتوسط وانتقلوا مع لغتهم وتراثهم وكنوزهم إليها، هذه الكلمة كغيرها من الكلمات العربية شكّلت جذور اللغة اليونانية التي نسب إليها واضعو التاريخ في عصرنا الحديث كل الأصول العريقة للمصطلحات والألفاظ، وغضوا الطرف عن أصولها العربية وهو ما أفقدهم في كثير من الأحيان الموضوعية والمقدرة على إدراك الحقيقة والصواب[1]. وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في آيات عدة تحت مسمّى "أساطير الأولين" وفي ذلك دليل آخر على أن الكلمة ذات أصل عربي فالقرآن نزل عربياً كلّه، وقد ورد لفظ أساطير الأولين على لسان قوم محمد(ص) القرشيين الفصحاء، الذين سمعوا بالأساطير وعرفوها وهم بعد لم يتصّلوا باليونان أو يقتبسوا شيئاً من ألفاظهم وكلماتهم، ولم يرد في التاريخ قبل البعثة النبوية أنّ العرب قد اقتبسوا من غيرهم وهم الذين يعتزّون بلغتهم أيّما اعتزاز.

والحقّ أنّ الكلمة عربية الأصل، حديثا أصبحت تعني السطور أو الأخبار القديمة المدوّنة المسطورة؛ وهي بمثابة أوّل كتاب في التاريخ، وقد انتقلت الكلمة إلى اللغات الأجنبية وتطورت لتصبح هـ – ستوريا، والهاء حرف تعريف في اللهجة العربية الفينيقية، ثمّ صارت تعني فيما بعد بـ" التاريخ" في عدة لغات، مع قليل من الاختلافات، فعند اليونان إستورا، وتعني حكاية أو قصة كما تعني "تاريخ"، وفي

---

[1] – راجع: **اللسان العربي**– بعد فطري وارتباط كوني، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

الإنجليزية نجد كلمة History بمعنى تاريخ، وفي الفرنسية إيسّتوار، وفي الروسية استوريا ، وهي كلّها مشتقة من الكلمة العربية أسطورة التي تعنى بكتابة التاريخ وتدوينه. يذكر أحمد داود : "أنّ من جذور الكلمة جاء لفظ "etc.." وتلفظ "etcetera" للإشارة إلى أنّ هناك سطورا لم تكتب أو لم تذكر وكأنها تشكّل نقصا في نهاية السطور يترك للقارئ أن يكمله تماماً كما تستخدم اللغة العربية "..إلخ" للمعنى نفسه، فمن أين جاءت لفظ "etc.." وما أصلها؟ هذه الكلمة أصلها من كلمة (واتّسطرا) العربية السريانية انتقلت إلى اللاتينية حيث أنّ الواو في اللاتينية هي E ، فصارت تستخدم للتعبير عن ذات المعنى الذي انحدرت منه وهو السطور، واليوم تستخدم الكلمة ولا أحد في الغرب يعلم من أين جاءتهم وما مصدرها، في حين أنّها انتقلت مع غيرها من مئات الكلمات العربية إلى الغرب عبر البوابة اليونانية"[١].

جاء في كتاب المثولوجيا السورية، تعريف للأسطورة عن الباحث والفيلسوف ميرسيا إيلياد : "أن الميتوس (Mythos) وهي عند الإغريق تعني حكاية، والأسطورة تروي قصة مقدسة وحادثا وقع في زمن البدء سواء أكان ما أتى إلى الوجود هو الكون أو جزء منه، ولا يروي الميتوس إلا ما حدث فعلاً ويفسّر ما هو كائن وموجود فعلاً ، لذلك فهو قصة حقيقية" . ويقول: "أنّ الأساطير تنبعث من حاجة دينية عميقة وتوق أخلاقي وانضباطات وتحديات تظهر في صبغة اجتماعية ومتطلّبات عملية. وفي الحضارات القديمة البدائية تلعب الأساطير دوراً ضرورياً إذ أنّها تعبّر عن المعتقدات، أنّها تشريع حقيقي للديانة البدائية وللحكمة العملية كما يقول مالينوفسكي"[٢].

وينقل الدكتور عبدالباسط سيدا عدّة آراء قيلت لباحثين ومفكّرين غربيين حول تعريف الأسطورة نذكر منهم:

قول مالينوفسكي، الذي رأى أنّها ركن أساسي من أركان الحضارة الإنسانية، تنظّم المعتقدات وتعزّزها، وتصون المبادئ الأخلاقية وتقوّمها، وتضمن فعالية الطقوس، وتنطوي على قوانين عملية لحماية الإنسان"

---

[١] – أحمد داود، **تاريخ سوريا القديم**، المركز، ص ٨٧.

[٢] – وديع بشور، **الميثولوجيا السورية** – أساطير آرام، ص ١١ .

ويـرى كـارل غوسـتاف يونـغ أنّ الأسـطورة تـنير جوانـب الـنفس الإنسـانية، وأنّ المجتمع الذي يفقد أساطيره بدائيا كان أم متحضرا يعاني كارثة أخلاقية تعادل فقدان الإنسان لروحه"

أما الفيلسوف الألماني أرنست كاسيرر فيؤكّد أنّ الأسطورة تمثّل قوة أساسية في تطوّر الحضارة الإنسانية، عبّر الإنسان من خلال رموزها عن اهتماماته وتطلّعاته، وقد وجد أنّها تكوّن مع اللغة والفن والدين صورا حضارية، تبدعها طاقة الإنسان الرمزية"[1].

ويرى أحمد كمال زكي أنّ "الأساطير علم قديم، وهو أقدم مصدر لجميع المعارف الإنسانية، لذا فإنّ الكلمة ترتبط دائما ببداية الناس"[2]، "وهي حركة حضارية مؤكّدة، ومتّصلة الحلقات، كانت في طورها الأول جزءا من العبادة يتم أداؤه داخل المعبد"[3].

ويقدّم فراس السواح، في كتابه "الأسطورة والمعنى" مقدّمة مهمّة قبل طرح تعريف الأسطورة عيّن فيها المعايير الدقيقة التي تميّز النص الأسطوري عن غيره من النصوص، وهو يرى أنّ تحديد المعايير يعتبر أمرا بعيد التحقّق في ضوء الوضعية الراهنة للبحث الميثولوجي، حيث يخلص إلى عدّة نقاط نقتبس منها التالي[4]:

١. من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة بما تحويه من حبكة وعقدة وشخصيات مصاغة في قالب شعري يساعد على سرعة تداولها وحفظها ويزودها بأثر على العواطف والقلوب.

٢. يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة دون أن يعني

---

(١) – عبدالباسط سيدا، **من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري**، ص١٩.

(٢) – أحمد كمال زكي، **الأساطير**، ص ٤٤.

(٣) – أحمد كمال زكي، **الأساطير**، ص ٥٥.

(٤) – فراس السواح، **الأسطورة والمعنى**، ص ١٢.

ذلك الجمود أو التحجر، فالفكر الأسطوري قادر على خلق أساطير جديدة أو تجديد الأساطير نفسها أو تعديلها.

٣. تتميّز موضوعات الأساطير بالجدية والشمولية، مثل مواضيع التكوين والأصول والموت والعالم الآخر ومعنى الحياة وسرّ الوجود، وهي تشترك في موضوعاتها مع الفلسفة إلا أنّ الفلسفة تلجأ إلى المحاكمة العقلية للمفاهيم والعلوم بينما تلجأ الأساطير إلى الخيال والعاطفة والترميز.

٤. تبعث الأسطورة رسالة غير زمنية وغير مرتبطة بفترة ما، بل إنها رسالة سرمدية خالدة تنطق من وراء تقلّبات الزمن الإنساني تجعلها أكثر صدقا وحقيقة عند المؤمن بها من أي مضامين تاريخية أو روائية أخرى.

٥. ترتبط الأساطير ارتباطا وثيقا بنظام ديني معيّن وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل في صلب طقوسه، بحيث أنّها تفقد كل مقوماتها إذا انفصلت عن هذا النظام وتتحول إلى شيء آخر ليس بالأسطورة.

٦. تتمتع الأساطير بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم، وقد آمن الإنسان القديم بكل العوالم التي نقلتها الأساطير كقيمة أساسية تمتلك السطوة على العقل والقلب.

وبهذه المقدمة يخلص الباحث إلى التعريف التالي للأساطير فيقول: "إنّ الأسطورة هي **حكاية مقدّسة**، ذات مضمون عميق يشفّ عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان"[1].

من خلال التعريفات والآراء السابقة، وبالتحليل الدقيق للأساطير، باعتبارها جزءا من التراث القديم المعبّر عن نتاجات الأوّلين وأفكارهم وانعكاس تعليم القوى الربّانية لهم، نخلص إلى القول بأنّ **الأسطورة هي القصّة الشعرية المصفوفة زجلاً أو شعراً بحيث تحوي موضوعاً دينياً يتعلّق بالقوى العلويّة والخفيّة، وتعبّر عن معارف الإنسان الأول وأخلاقه ومستويات علومه وتأملاته، وهي موضوعة في قالب**

---

[1] – فراس السواح، **الأسطورة والمعنى**، ص ١٤.

ذي إيقاع شعري موسيقي يتضمن الحدث المراد تأريخه سواء كان من صنع الإنسان أو الطبيعة أو الربّ، لأجل أن يتلى ويُتداول ويؤدي دوره في تثقيف العقول وتحريك المشاعر.

ورجوعا إلى الوزن الصرفي لكلمة الأسطورة، فهو على وزن "أفعولة"، كالأكذوبة والأنشودة والأرجوحة والأحدوثة، والأطروحة، والأضحوكة، والألعوبة.. ولعلّ هذا الوزن في العربية يشير إلى مدلول خاص، ففي العربية النشيدة ليست كالأنشودة والحديث ليس كالأحدوثة، والضحك ليس كالأضحوكة واللعب ليس كالألعوبة، فإلى جانب كون الوزن يدور في مستوى المفعولية لا الفاعلية، فإنّ زيادة الألف والواو والتاء المربوطة للكلمة قد أعطت دلالة إضافية للكلمة فهذا الوزن يفيد التكرار والاستمرارية، فالأنشودة هي نشيدة باتت تتكرّر على الألسن، والألعوبة تقال حينما يصبح الشيء مادة للعب به في عدّة اتّجاهات، كذلك فإنّ الأحدوثة ليست كالحديث، يقول صاحب محيط المحيط أن الأحدوثة هي ما يُتحدّث به مرارا، وينقل عن الفراء أن واحد أحاديث أحدوثة[1]، وفي القرآن الكريم: (**وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ**)(المؤمنون: ٤٤)، إشارة إلى تحوّلهم إلى حديث يتكرّر على الألسن بما يتضمّنه من معاني العبرة والاتعاظ. فوزن "أُفعولة" يشي بقوّة صائغ أو صانع أو فاعل الأفعولة بحيث أورث ثبات وصف "أفعولته"، لاحظ: أكذوبة، أضحوكة، أرجوحة، أمثولة ..، إذن فالأسطورة لا تعني بالضرورة كلّ ما كُتب وسُطّر، وليس كل المسطور في التاريخ هو من الأساطير، ولا يقال عن المسطور أنّه "أسطورة" إلا باعتبارات معيّنة أهمّها مادتها العلمية ذات الطابع المقدّس وصياغتها في هيئة رمزية تضفي عليها طابعاً سحرياً قادراً على تحفيز وقيادة المشاعر والاتجاهات، وعلينا البحث عن تلك الاعتبارات واستخلاصها من المدوّنات التي بين أيدينا فليست كلّها نصوصاً مقدّسة، ونحن نعتبر ذلك مرتكزا أساسيا في تناولنا للأساطير واعتمادنا عليها في تفسير التاريخ والحقائق، خاصة في ضوء الكميات الكبيرة جدا من المدوّنات القديمة التي تناولت موضوعات متعدّدة في شئون الحياة المختلفة.

---

[1] – بطرس بستاني، **محيط المحيط**، ص ١٥٣.

ويمكن القول أيضا أنّ وزن "أفعولة" يحمل دلالة أخرى، وهي دلالة الشيء المتعيّن الظاهر الذي لا يقف على حدّ بيان مفهوم الكلمة بل يتجاوزه إلى الإشارة إلى تعيّنها وظهورها، فالأضحوكة هي ما تعيّن من مادة هي في الأساس تثير الضحك، ولكن لمّا تعيّنت أصبحت أضحوكة سواء تمثّل هذا التعيّن في شخص أو نموذج أو غيره، والأحدوثة هي ما تعيّن وأصبح بارزا للاعتبار والذكر ولذلك تقول الآية: (**وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ**)(المؤمنون:٤٤) أي عبر ظاهرة يراها من يمرّ عليها، وكذلك الأمر بالنسبة لألعوبة وأطروحة وأرجوحة وأسطورة. فالأسطورة هي المفاهيم والأفكار المعبر عنها بالأقوال أو الكتابات المقدّسة التي تداولت ثم كُتبَت وحُفظَت بعناية خاصة وبالأخص داخل المعابد، فالقداسة شرط أساسي يخرجها من مجرّد كونها قولا وحديثا إلى شكلٍ أسطوري يكسب الكلام طابعا معيّنا، وبهذا نشأت الأسطورة، ففي الطور الأول استعمل الأوائل التداول والرواية الشفهية وسيلة لنقل الأفكار والأحداث المرتبطة بأخبار السماء بأمانة عبر الأجيال، ولكن حينما وعى الإنسان الكتابة واهتدى إلى النقش حينها أدرك أهمية أن يسطّر معارفه وحكاياته، فالأساطير هي المدوّنات التي تختزن فيها المعارف والعلوم والتي وصلت إلى الإنسان الأول بطريقة غيبية جعلته يتعامل معها كنصوص مقدّسة ويعتني اعتناءا كبيرا بحفظها ونقلها للأجيال بأمانة، والأساطير بهذا المفهوم هي التي تناقلتها الأجيال جيلا بعد جيل، وهكذا عرفها الناس إلى عهد الرسول(ص)، أنّها تلك المدوّنات التي سطّرها الإنسان الأول ليحفظ علومه ومعارفه وعقائده، فالتفصيل بين مواد الرقم الطينية أو الحجرية والخشبية والبرديات والجداريات والرسوم المكتشفة وتصنيفها بحسب موضوعاتها أمر في غاية الأهمية، فليست كلّها من الأساطير المقدّسة التي ندعو إلى أهمية الرجوع إليها ونؤكّد على دراستها باعتبارها الحلقة الأولى لذلك الرباط الذي يصل الأرض بالسماء.

وعلى ذلك ليس كلّ ما كتبه الإنسان الأول فيما يتعلّق بحياته ونظامه ومعارفه بل وبتفاصيل سجلاته الحياتية اليومية وتندراته وفكاهاته وسجلات معاملاته التجارية، وأسماء المواليد، وعقود الزواج وغيرها هي أساطير، بناءً على تعريف الأسطورة فهذه خارجة فليس كلّ مدون أسطورة، تماما كما نقول ليس كل معدن ذهب، فالموضوع في الذهب لا في المعادن، فلِمَ هذا الخروج؟ فكثير من المدوّنات تقع خارج مقصودنا من

الأساطير (بل ٩٩٪ هي ليست أساطير بالنظر إلى ملايين المدوّنات المستخرجة من كافة المواضيع) كونها تضمّنت موضوعات حياتية أو فكاهية أو تنظيمية وليست معارف وعلوم وعقائد، ويتّجه تركيزنا على تلك المدوّنات التي تناولت موضوع الكون والخلق والإنسان الأول والتطوّر المعرفي للإنسان وأساليبه في التعلّم ونشر الحضارة. أي أنّ حديثنا سيكون عن تلك المدوّنات القديمة التي حملت صفة القدسية وتضمنت مفاهيم عقائدية وحقائق كونية وبيانات تعليمية بنائية حضارية، إنّها تلك المدوّنات التي حُفظت في المعابد وحظيت برعاية الكهنة والملوك، وهي وإن اشتركت مع غيرها من المدَوّنات بل ومع الخرافات في صياغتها على هيئة شعرية عاطفية تكثر فيها المحسّنات والزيادات إلا أنّ هذا التشابه ناتج من طبيعة ذلك الزمان ومستواه الثقافي والاجتماعي.

وقد استخدم الإنسان الأوّل في صياغته للأسطورة لغة بسيطة سهلة التداول وأسبغ عليها تعابير إيحائية لتكون معاني معبّرة بصدق عن واقع ذاك الإنسان وفكره، ويمكن من خلال دراسة الأساطير اكتشاف المستوى المعرفي والعقائدي والعلمي والأخلاقي والثقافي للشعوب، والتعرّف على أطوار التاريخ الإنساني، لأنّها تمثّل انعكاساً لمعارف الإنسان الأوَّل وعلومه وحكمته، وهي تعبير عن منطقه وأسلوبه في المعرفة والتفكير، وسبيله لتفسير الأشياء وتعليل أسباب حدوثها.

إنّ الشكل الذي خرجت به الأساطير والذي يغلب عليه الطابع القصصي المصاغ في قالب شعري يعتمد على المحسنات الأدبية والاستعارات التشبيهية والبيانية والبديع والخيال ساعد كثيراً على سرعة حفظها وتناقلها بين العامة وترتيلها في المناسبات والطقوس، كما أنّه زوّدها بشحنة من العاطفة والمشاعر الجيّاشة التي تجعلها مقرّبة من أذهان وقلوب الناس وتملّكها القوة المسيطرة على النفوس، فالأسطورة إذن هي أداة التثقيف والأسلوب الذي به تمتزج الفكرة بالعاطفة ما يجعلها حيّة فاعلة في قلوب الناس.

ولا تقتصر الأسطورة على زمن محدّد، فلكل جيل أساطيره، ويمكن أن يكون لكلّ فرد أو مجتمع أساطيره التي تلهب حماسه وتثير مشاعره، يقول جوزيف كامبل: "على الفرد أن يخلق نوعاً من الأسطورة التي لها صلة وثيقة مع حياته الخاصة"، ويعلّق حول

أهمية الوظيفة التربوية للأسطورة في حياة الفرد أنّها: "ترمي إلى كيفية العيش في إطار حياة إنسانية وضمن أية ظروف معيّنة، فالأسطورة يمكن أن تعلّمك ذلك"[١]. وقد أدرك الكهنة والأحبار اليهود الأبعاد التي تتركها الأساطير في نفوس أتباعها، فحين سعوا لإنشاء كيان غير شرعي لهم في فلسطين، اختاروا شعارات وعناوين مزورة اقتبسوها من توراتهم الموضوعة وصبغوها بصبغة أسطورية تحرّك المشاعر، فأطلقوها وزمجروا بها، وروّجوا لها بكافة الوسائل، وفي مختلف المناسبات، فكلمات من مثل "أرض الميعاد" و "شعب الله المختار" و"هيكل سليمان" و "نجمة داود" و"ميراث الأنبياء" و"أرض الآباء" و"جبل الربّ" و"العرق السامي" و"أورشليم"، وغيرها من أشكال التزوير والتحريف ما هي إلا شعارات أُخْرِجت على هيئة أساطير، ووجدت في آذان أتباعها صدى رنّانا مؤثّرا فاعلا قادرا على الوصول إلى الأعماق ومحادثة الوجدان، بهذه الشعارات تمكّنوا من تجميع الجموع وبثّ العاطفة وهزّ المشاعر وزرع الإيمان بعقيدة مصطنعة والتفاني من أجلها خاصّة عند العامّة، ولقد نجحوا بالفعل في أن يجدوا محلّ القبول ووجه الرضا لدى أتباعهم.

ثانياً- نشأة الأساطير

زعم الباحثون وعلماء الميثولوجيا أنّ الأساطير تمثل طفولة العقل البشري وبدايات تعبيره عن الحقائق وتفسيره للظواهر الطبيعية، برؤى خيالية توارثتها الأجيال، وهو زعم قائم على فرضية "أنّ الأوائل اخترعوا أساطيرهم لأنّهم اختلقوا دينهم تأثّراً بجهلهم في تفسير قوى الطبيعة التي هي غيب وقوى خفيّة وأسرار وسحر بالنسبة لهم، فلمّا نضج العقل اعتمد العلم بدلاً من الأساطير"، هذه الفرضية تبدو غير صحيحة، ولعل السبب الذي حذا بهم إلى ذلك نظرتهم إلى أساطير كلّ العالم نظرة واحدة دون تفريق، فملاحظاتهم يمكن أن تكون صحيحة وقد تنطبق على مدوّنات بعض الشعوب، إذ جنحت أغلب أساطير الشعوب إلى الخيال واللامعقولية، إلا أنّ تعميم هذه الملاحظات على كلّ ما خلّفه لنا التراث القديم يعدّ تعميما ظالماً في

---

[١] – جوزيف كامبل، **قوة الأسطورة**، ص ٥٧، ٥٨.

حقّ أولئك الذين سجلوا بأساطيرهم حقيقة وحفظوا تاريخا، فمن الظلم على سبيل المثال أن يُدرَس موضوع الأساطير ونشأتها بأخذ عيّنة أساطير الرومان والإغريق مثلا والبناء عليها ثمّ نقل تلك الآراء حكَماً عامّا على الأساطير أيّا كانت، لأنّ تلك أساطير غابت معالمها وصارت تجول بين الخرافة والرمز عنها بين الأسطورة والمعنى. والأساطير في المنطقة العربية نالت من أصناف التجنّي ما أدّى إلى نتائج خلت من الأمانة والوفاء لتلك الشعوب التي خلّفت فكراً وعلماً، فلتلك الأساطير خصوصية ينبغي أن تُبحث وتُدرس بمعزل عن أساطير الشعوب الأخرى، لكي لا تختلط علينا الأمور فنستطيع التعرّف على سبب نشأتها ونتمكّن من الوصول إلى مراميها، لأنّها تنطوي على حقائق دينيّة وعلوم سماوية لا على إكثار خياليّ خرافيّ.

وفي محاولة علماء التاريخ والميثولوجيا تفسير نشأة الأساطير وتحديد بدايتها، وبيان أسبابها وبواعثها، نجدهم لا يتفقون على أسباب محددة، فمنهم من يرى أنّ كلمة الأسطورة ترتبط ببداية الحياة على الأرض، حيث كان البشر يمارسون السحر ويستحضرون الأرواح الشريرة ويؤدون طقوسهم الدينية لأجل التعايش مع الطبيعة والرغبة في تفسير ظواهرها، ومنهم من يرى بأنّ الأساطير إنّما نشأت استجابة لعواطف الجماعات القاهرة كالملوك والكهنة، ومنهم من يرى أنّها تراكم لنتاج الفكر الإنساني المبدع في مجال الأدب تصدر في الغالب عن حكيم القوم ويتناولها الرواة بالإضافة عليها من خيالهم الخاص، وقد تتعرض للزيادات وفق الظروف الاجتماعية المستجدة من مجتمع لآخر ومن زمن لآخر، وهناك من ينسب الأساطير إلى المنشأ الطبيعي المتصل بعناصر الطبيعة كالأجرام السماوية والشمس التي طالما سحرت الإنسان وأثارت تأملاته، ومنهم من يرى أنّها ترجمة دقيقة للحوادث التاريخية الجارية استهدفت نقل تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة في البدايات الأولى للحياة على الأرض، ومنهم من اعتقد أنّ الأسطورة استمدت من الطقوس كأداة لإعطاء التبرير لتلك الطقوس التي ورثوها عن آبائهم وتمسّكوا بها دون أن يعرفوا لها معنى أو غاية.

"وفي محاولة للوصول إلى أرضية علمية مشتركة في تفسير أصل الأسطورة يقرّر توماس بوليفينشي في كتابه "ميثولوجية اليونان وروما" وجود أربع نظريات في أصل الأسطورة.. وهذه النظريات هي:

النظرية الدينية: التي ترى أنّ حكايات الأساطير مأخوذة كلّها من الكتاب المقدس مع الاعتراف بأنها غُيِّرت أو حُرِّفت، ومن ثَمَّ كان هرقل اسماً آخر لشمشون، والمارد ديوكاليون ابن بروميثيوم الذي أنقذه زيوس مع زوجته من الغرق فوق أحد الجبال هو نوح، وهكذا.

النظرية التاريخية: التي تذهب إلى أنّ أعلام الأساطير عاشوا فعلاً وحقّقوا سلسلة من الأعمال العظيمة، ومع مرور الزمن أضاف إليهم خيال الشعراء ما وضعهم في ذلك الإطار الغرائبي الذي يتحرّكون خلاله في جوّ الأسطورة.

النظرية الرمزية: وهي تقوم على أنّ كلّ الأساطير بكلّ أنواعها ليست سوى مجازات فُهمت على غير وجهها الصحيح أو فُهمت حرفيّاً، من ذلك ما يقال عن أنّ "ساتورن" يلتهم أولاده أي الزمن يأكل كلّ ما يوجد فيه.

النظرية الطبيعية: وبمقتضاها يتمّ تخيّل عناصر الكون من ماء وهواء ونار في هيئة أشخاص أو كائنات حية، أو أنّها تختفي وراء مخلوقات خاصة، وعلى هذا النحو وُجِدَ لكل ظاهرة طبيعية – ابتداءً من الشمس والقمر والبحر وحتى أصغر مجرى مائي- كائن روحي يتمثل فيه وتنبني عليه أسطورة أو أساطير"[1].

من الواضح أنّ النظرية الدينية إنّما انطلقت من مبدأ أصحابها الذي يعتمد على مركزيّة الكتاب المقدس والاعتقاد بأنّ أحداث التاريخ تدور كلّها حوله، وكأنّ التاريخ ابتدأ بالتوراة، وهي مغالطة في حقّ التاريخ، فالتوراة التي بين أيدينا ليست كلها نصاً سماوياً مقدساً، فهي ليست توراة موسى وإن تضمّنت شيئا من شريعته، فكما هو ثابت اليوم أن التوراة وضعها جماعة من الكهنة في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، في حين أن الأساطير ترجع (تدويناً فقط لا شفاهاً) في أقل تقدير إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ونصوص التوراة مقتبسٌ كثيرٌ منها من التراث العربيّ الشفويّ الذي تُعبّر الأساطير عن بعضٍ منه، ولا غرابة في ذلك، لكون كتبتها من كهنة بني إسرائيل هم من أبناء المنطقة العربية عاشوا فيها وتداولوا أساطيرها وحكمها، علاوة على أنّ كثيرا من

---

[1] – منير عتيبة، **الأساطير وخيال الشعوب**،– موقع إسلام أون لاين:

http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/fan-48/alrawe.asp

الأخبـار خاصـة مـا يتعلّـق منـها بخلـق الكـون وبدايـة الإنسـان هـي أخبـار تعلّمهـا بنـو إسـرائيل كمـا تعلّمهـا أسـلافهم السـومريون والبـابليون وغيرهـم مـن مصـادر ربّانيـة، فالتوراة لا يخرج عن كونه كتاب تاريخ يشتمل على سائر أخبار المنطقة العربية ويجمع تراثها وحكمتها وعلومها وقصص أنبيائها، إلى جانب تضمّنه لأحكام الشريعة التي جاء بها موسى (ع)، ولكنه لم يأت نقيّاً ناقلاً للحقيقة، فلقد ضمّن الكهنة التوراة ما شاءوا وغيّروا فيها أحيانا ما غيروا وحرّفوا ما حرّفوا بدواعي مختلفة، فلا عجب أن نجد بعض نصوص التوراة متشابهة مع الأساطير العربية ومتحدّثة عن الشخصيات ذاتها كآدم ونوح وملائكة الخلق وغيرهم، حتى اعتقد الباحثون أنّها منقولة حرفيا عن التراث العربي، ينقل نزيه شوفي عن إدوارد كيير في كتابه "هنا كتبوا على الطين": "إنّ شرائع وقصص وأساطير التوراة ترجع إلى أصل قديم، وليس لليهود فيه دور، بل إنّها سومرية وأكادية وبابلية وكلدانية وآشورية ومصرية وكنعانية، وليس لليهود أي أدب مبتكر ـ إبداعي ـ أو ثقافة خاصة، وإنّ كلّ ما لديهم هو مقتبس –من قبل كهنتهم– من المدونات العربية القديمة حيث أخذوا كلّ ما ارتأوه جديراً بأن يحتويه تأريخ يؤسس للجنس اليهودي، وحذفوا بلا هوادة كلّ ما لم يلقَ استحسانهم"[(١)]. كما أنّ هناك تشابهاً بين الشخصيات في الحضارة اليونانية مع ما ورد في التوراة، لأنّ الأساطير اليونانية في الأصل ما هي إلا امتداد– ولو مشوّه– لأساطير العرب الفينيقين، وفي مقدمتهم قدموس العربي الذي انطلق من سوريا[(٢)] باتجاه الغرب وبنى مدينة أثينا وقلعة قدميا، فالعرب الفينيقيون نقلوا تراثهم وأساطيرهم العربية إلى بلاد اليونان قبل مولد موسى (ع)، ومن جملة ما نقلوا أساطير خلق الكون وخلق آدم والشجرة والمعصية وطوفان نوح، وهي ذات الموضوعات الموجودة في أساطير سومر وبابل وأوغريت، والأرجح أنّه قد ذكرتها أيضاً مدوّنات الكهنة التي سمّوها التوراة اقتباساً من ذلك التراث، فإن أراد منصفو التاريخ أن يرجعوا إلى أصل الأساطير اليونانية فلينسبوها إلى أصلها الحقيقي التي انبثقت منه، ولا مبرّر من التركيز على الأساطير

---

(١) – نزيه الشوفي، **دراسة التلفيق الصهيوني واغتيال التاريخ** – كشف الحقائق التاريخية، ج٢، ص ١٥٤.

(٢) – تطلق سوريا على الجزء الشمالي الغربي للجزيرة العربية أو ما يعرف بأرض الشام.

اليونانيـة والغفلـة عـن ذكـر التشـابه بـين شخصـيات أسـاطير سـومر وبابـل وآشـور وشخصيات التوراة، وإنّ الإصرار على نسبة الأساطير إلى الكتاب المقدّس هو تأكيد للاتجاه نحو زجّ التوراة في كلّ زوايا التاريخ ومفاصله، في محاولة مقصودة لطمس الحقائق أو تزييفها.

ومع التأكيد على خصوصيّة كلّ حضارة وتمايزاتها بحسب ظروفها الزمانية والمكانية ومستوياتها المعرفية وخلفياتها الثقافية، فللخصوصيّة انعكاس كبير على بناء ونشأة الأساطير، إلا أنّ هناك نوعاً من التداخل الذي يخلق تكاملاً بين النظريات الثلاث الأخرى في تفسير أصل الأساطير مهما كان زمنها أو موطنها، فالنظرية التاريخية تُعطي تفسيراً منطقياً شاملاً لنصوص الأساطير من حيث الواقع والمضمون والشكل، وتكاد تفسّر كل الأشياء الواردة في الأساطير، لأنّ الأساطير في مُجْمَلها تحكي أفعالاً عظيمة لقوى ملائكية أو بشرية كان لها دور رئيسي في تشييد أساسات النظام على هذا الكوكب، والنظرية الرمزية تركّز على الشكل الذي ظهرت عليه الأساطير كونها تستخدم الرموز كمجازات للتعبير عن معانٍ عظيمة ولكن باستخدام لغة بسيطة مثيرة، وإنّ فهم هذه الرموز يعتبر المفتاح الرئيسي لفهم الأسطورة بأكملها، أمّا النظرية الطبيعية فليست إلا صورة من صور النظريّة الرمزيّة التي تضفي صفة رمزية على الظواهر الطبيعية من ماء وهواء بكائنات ومخلوقات مرئية من الطبيعة، وإذا كان قدامى المصريّين قد رمزوا لأبجديّتهم برموز من الطبيعة كالطيور والحيوانات والأدوات فيما سُمّي الكتابة الهيروغليفيّة فإنّ أبجديّة الأسطورة من قوى الطبيعة وظواهرها قد تشخّصت حال تدوينها وأسطرتها في أسماء أفراد، ولو جمعنا النظرية التاريخية مع الرمزية لحصلنا على تفسير متكامل ومن أبعاد متعدّدة لأصل الأسطورة ونشأتها.

- **أسطورة إيتانا والنسر. مثال للرمز في الأسطورة**

أسطورة إيتانا والنسر العربية البابلية، التي تُسمّى حسب استهلالها "عندما بنى الآلهة المدينة"، والتي تعدّ من أعقد الأساطير وقد اختلف المؤرّخون في تفسيرها، لأنّها بالفعل أسطورةٌ متشعّبة تقترب في ظاهرها من الخرافة، حُبكتْ في تفاصيلها، حتّى بدتْ وكأنّها تصلح فقطّ لمسرحيّات الأطفال، وهذا ما حصل فعلاً فقد أخرجت هذه

الأسطورة لمسرحيّات الأطفال. الأسطورة تتحدّث عن الأزمان الأولى عندما وضع الآلهة (هكذا ترجموها، وهي قوى ربّانيّة) أساسات تقدير الأمور والمصائر وخلق الجهات الأربع ثم بناء أول مدينة للبشر وبعدها تتناول كيف أنّهم راحوا يبحثون عن شخص مناسب ينصّبونه ملكا على المدينة ليكون حاكماً صالحاً للناس فوقع اختيارهم على إيتانا (وهو اسم يرمز لآدم الإنسان المجتبى للخلافة على الأرض)، هذا عن المقطع الأول، أما المقطع الثاني فهو يقع في عدّة ألواح فُقد كثيرٌ من سطورها، ويصل مجموع سطورها المترجمة إلى ما يربو عن المائتين والأربعين سطرا، تمثّل متن الأسطورة، وهي تحكي قصة حية اتخذت من الشجرة وكراً لها وبيتاً لصغارها ومن نسر حطّ على قمتها وأقام عليها عشاً لفراخه. ولقد احتار الباحثون في النصّ الثاني، وعلاقته بالأوّل الذي يختصّ بتصميم الأرباب المدينة أو المركز الربّاني، ولماذا عُطف النص الثاني بعد الأول مباشرة رغم التباين الواضح بينهما في الموضوع، فليس هناك أي رابط منطقي واضح، فخلص أغلب الباحثين بأنّهما قصّتان غير متجانستيّن، واعتقدوا أنّ الأسطورة التحمت خلال مسار نقلها بحكاية خرافية حول النسر والحية، لأنّهم لم يعثروا على علاقة بين تنصيب ملك للبلاد خليفة للبشر، حيث مجمع الملائكة والربّ إنليل، وبين حيّة تعيش تحت ظلّ شجرة و نسر يعيش فوقها!

الأسطورة في مجملها رمزية تحكي في مقطعها الأول مرحلة خلق آدم المسمّى عندهم "إنليل" بعد أن نفخت فيه الروح فصار مثيلا للربّ "إنليل" ربّ الروح، حدث ذلك في الوقت الذي كانت الأرض تعجّ بالبشر الذين لا يعبأ بهم لشدة طغيانهم، في هذا الوقت قرّر الملائكة الكبار أو الآلهة الكبار حسب المفسّرين وهم الملائكة الموكّلون بتقدير الخلق، فاختاروا آدم من بين البشر الهمج وأسكنوه الجبل العظيم والمكان السامي المهيب الوفير الخصيب كما في أساطير أخرى، هناك سكن آدم الجنّة، وهناك خلّق وعلّم بواسطة الملائكة الأرباب، وكلّف بأمانة الاستخلاف على الأرض، فالأسطورة تحفظ أخبار الملأ السماوي الأعلى، وتتحدّث عن مرحلة تاريخية في غاية الأهمية وتشرح الغايات الأساسية من خلق وتكليف الإنسان، ثم تروي التجربة الأولى

للإنسان العاقل التي أدّت به إلى الخروج من جنّته، كلّ ذلك في قالب شعري قصصي رمزي، تقول الأسطورة[1]:



(الصورة: ١) رسم لأسطورة إيتانا والنسر

والآلهة الكبار أنوناكي محدّدو الأقدار

(أنوناكي[2]: السادة الأنقياء/الملائكة الأطهار، يُحدّدون الأقدار في "يوم القدر").

---

[1] - رينيه لايات، **سلسلة الأساطير السورية**، ص ٣٢٤- فراس السواح، **الأسطورة والمعنى**، ص ٥٠.

[2] - أنو-ناكي: أنو: سماء، علويّ، رفيع، سيّد – ناكي: نقي، طاهر، فهم أنقياء السماء، السادة الأطهار، الملائكة.

تذاكروا وهم في المجمع بشأن البلاد

(مجمع الملائكة/الأرباب، حيث الجنّة الأرضية المقدّسة والمركز، والبلاد : الأرض).

مع آلهة الكون الذين يخلقون كلّ شكل

(المدبّرون من سادة الملائكة الذين خلقوا الأرض وهيّأوها، وخلقوا الكائنات).

مهيبة كانت الايجيجو في نظر البشر

(صنف الملائكة-الجنّ الزائرة الأرض "حجيج" منذ القدم، وهي متأجّجة "أجيجٌ").

لقد حدّدوا للبشر عيد رأس السنة

(بدء اليوم الربّاني، رأس السنة، ٢٥ كانون الأوّل، يوم القدر، بداية الإنسان)[1].

دون أنْ يعيّنوا ملكاً يحكمهم

("البشر" موجود، لكن كبهائم ذكيّة، دون خليفة وملك).

كانت عشتار ترغب في إيجاد راعٍ للبشر

(هو الخليفة، ودور "عشتار" كقوّة واضح، لأنّه نسل بشريّ).

فكانت تفتّش عن ملك للبلاد

("عشتار أو أنينا" هي قوّة الخصب، والتخليق، والنسل، هي الملائكة الصافّة).

وترغب "أنينا" في إيجاد ملك البلاد

(بمعنى أنّ "عين السماء" تبحث للأرض الزاهية، والطبيعة الأرضيّة، عن ملِكها).

فأخذ "إنليل" في التحرّي عن عروشٍ في السماء

(أيّ بين الملائكة إنْ كانوا يصلحون كخليفة ومدبّرين والعرش هو المدبّر).

ففتّش في كل مكان عن عرش الملك

---

[1] - راجع بحث: **ليلة القدر**- عيد الخليقة، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

لأنه لم يكن بعد من ملك في البلاد

وعندئذ نزلت الملكية من السموات

فقرّر إنليل أن يخلق ملكاً للبلاد

(إنليل رب الروح سيخلق إنساناً ملكاً للأرض، ونسله سيكونون أربابها ومدبّريها).

ثم في المقطع الثاني الذي يشكّل الجزء الأكبر في الأسطورة، تبدأ قصة الحيّة مع النسر، قصّة رمزية لمفاهيم كبيرة وليست قصة خرافية، فالحيّة ترمز إلى النفس الطبيعيّة أي جانب الإنسان الغرائزي، بينما يرمز النسر إلى الإنسان السامي أي جانبه العقلاني، وهما اللذان اختلطا بعد ذلك كما تذكر الأسطورة، فانحدر النسر ليأكل فراخ الحيّة أي أصبح العقل منقادا للغرائز يقتات منها، وحين انحدر آدم العاقل (النسر) ووقع في المعصية أصبح هو (**صانع الشرّ والخطيئة**)، فعُوقب بالطبيعة نفسها، من الحيّة نفسها، أيْ من النفس أو من (**شبكة الأرض الواسعة**)، باستدراجه خارج الجنّة وخارج وكَره ومأمنه[1]، تبيّن الأسطورة بداية انحدار العقل(النسر) أي بداية معصية آدم الخليفة ووقوعه في الخطيئة قبل أن يجتبيه، ما أدّى إلى تراجع حالة التوازن الروحيّ- النفسيّ (العلويّ- السفليّ) عند آدم، تقول الأسطورة:

عندما كبر فراخ النسر وشبّوا، أضمر النسر مكيدة شريرة في قلبه،

ثم تحدّث إلى فراخه قائلاً: إنّي لآكل صغار الحيّة

سيشتعل غضبها عليّ بالتأكيد

ولكنّي سوف أطير عالياً وأختبئ في الأجواء

ثم أهبط إلى أعلى الشجرة فقط لأخطف من ثمرها،

فقال له فرخ مزغب كثير الحكمة، قال لأبيه:

---

[1] – راجع بحث: وعصى آدم- الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

لا تفعل ذلك يا أبي، لأنّ شبكة شمش[1] سوف تمسك بك، إن لعنة شمش ستطرحك وتأسرك.

ولكن النسر لم يصغ إلى كلام ابنه

وما كان منه إلا أن نزل والتهم فراخ الحيّة

فلمّا عادت الحيّة ولم تجد فراخها وعرفت أنّ النسر تعدّى عليها، توجّهت إلى قوى العدالة (شمش) ورفعت إليه مظلمتها، فأمرها أن تكمن للنسر داخل الثور الوحشي طعام النسور وتداهمه أثناء أكله، ففعلت ما أمر، ولم تنفع النسر حينها توسّلاته للحية واعتذاراته، فلقد قطّعت ريشه ونزعت جناحيه وطرحته في جحر، حينها اتّجه إلى القوى شمش وتوسّل إليه أن يرفع عنه العذاب، فبعث له إيتانا أي آدم نفسه ليخرج عقله (النسر) من الحبس في ذلك الجحر، وبالفعل بعد أن يتمّ التحرّر، يحمل النسر إيتانا فوق جناحيه ويطير به فوق البلاد تعبيرا عن طلبه التوبة، فيحصل عليها ولكنه يدفع معها الثمن بخروجه من الأرض التي عرفها إلى أرض أخرى وحياة تختلف تماما عما كان عليه، إذ لم يعد له مكان في جنّة السماوات، تقول الأسطورة في مقاطعها الأخيرة:

حدّقت جيداً، فقد أصبحت البلاد غير مرئية

وعيناي لم تشبعا من منظر البحر الواسع

ولكن يا صديقي لم أعد أرغب في الصعود إلى السماوات

حوّل مسيرتنا كي أرجع إلى الأرض

---

[1] - شمش(Shamash) رب العدالة عند البابليين، وله دور رئيسي في الأسطورة، حيث يرجع له لتقديم المظالم وطلب الحل.



(الصورة: ٢) إيتانا يحلق فوق النسر

من تلك الأسطورة يتبيّن لنا أنّ الأوّلين حرصوا على تدوين أفكارهم ومعلوماتهم عن الخلق وعن بدايات الإنسان الأول على وجه المعمورة، وعن تجاربه خاصة التجارب المريرة، في صورة رمزية مهذّبة غير فاضحة وعلى هيئة ملحمية أسطورية تبقى في الذهن وتشحن العاطفة، ليحفظوا بذلك الأسلوب احتراما وتقديرا للآباء الأفاضل، فعلى رغم أخطائهم إلا أنّهم سبب وجود الإنسانية ومنطلق تهذيبها وتعليمها. فاعتماد الأسلوب الرمزي القصصي لو أردنا أن نقيسه ونُحاكيه فهو كاحتفاظ العرب بمعلّقاتهم التي تمثّل أجود الفنون الشعرية التي تليق بالحفظ والتداول الشعبي لا أنّها تمثّل أفضل تدوين للحقيقة وللحكمة وأبسطها وأنقاها، وليس يفوتنا القول أنّ ما هو رمزٌ وتحليلٌ لدينا اليوم لم يكن يوماً مشكلةً لتلك الأجيال فأسطورة أناة وبعل وموت الزراعية كانوا يفهمونها بكل بساطة ماذا تعني، أما نحن ففهمناها أنها ترميز وأسطرة و.. و "كلمات ضخمة"، تماماً مثل أن نصنع اليوم لأطفالنا فيلماً كرتونياً وعظياً نشرح به تسوّس الأسنان، ونجعل السوس كائنات خرافية شرّيرة نهمة لها أسنان حادّة وربّما لها أسماء مشتقّة من عادات الغذاء السيّئة فنمثّل عدم التنظيف "أكول" "سكّور" "أبو حلوى" "قذّور"، ونصوّر الفرشاة والمعجون بطوفان راغٍ يقضي عليها ويخنقها ويميتها ثمّ تسطع الشمس من بريق أسناننا، طبعاً هذا الفيلم (الأسطورة) ليس لسذاجتنا، وليس لإيغالنا في الترميز، ولا نحتاج لمحلّل نفسي يُحلّل ديننا وفلسفتنا وحجم دماغنا، بل هي أدواتنا المتاحة لتقريب الفكرة إلى من نُتلمذه لغرسها فيه، والكلّ يعلم أنّ

مضمونها صحيح وتمثيلها خياليّ، فحين يأتي زمانٌ بعد ألف سنة ولمْ يكتشفوا من تراثنا إلاّ ذاك الفيلم، فهل يحقّ لهم أن يقولوا : لمَ صوّروا السوسة هكذا؟ وأطلقوا عليها الأسماء، وجعلوها قوى شيطانيّة؟ يبدو أنَّ عقليتهم لم تنضج بعد وعقيدتهم كذا وكذا!! أليس هذا ما نفعله نحن في حق أولئك؟!

ثالثاً - الفرق بين الأسطورة والخرافة

في المفهوم العامّي يكثر الخلط بين الأسطورة والخرافة، أما في المفهوم العلميّ عند الباحثين والمؤرخين فإنهم لا يخلطون بين الأسطورة والخرافة، فالأسطورة شيء والخرافة شيء آخر مهما بدا من صور التشابه والاتفاق بينهما . إنّ الأسطورة مادّتُها الحدث التاريخي، فهي تدور حول حدث تاريخي، هذا الحدث التاريخي وإن كان رمزيا، إما أن يكون من صنع الإنسان أو من صنع الطبيعة أو من صنع السماء، ولا يمكن اعتبار الحدث أنّه حدث تاريخي إلا إذا كان له تأثير حقيقي في مجرى حياة البشرية، علماً بأنّ الأساطير والنقوش والتصويرات ليست هي السجّل التاريخي الوحيد، بل هي السجلّ التاريخي الوحيد المكتشف، وربما السجل الوحيد التاريخي المدوّن أيضاً، أي أنّ الأوائل (وبالأخصّ السومريّين) لم يُدوّنوا حكمتهم وعلومهم الشفوية باللغة الدارجة، لكنّنا نجد أن شريعة حمورابي المدوّنة على مسلّته حملت لغة واضحة علميّة وقانونيّة وغير خيالية ولا رمزية، وكذلك حكمة أحيقار وزير سرجون الأكاديّ، ويبدو أنّ دخول عنصر القوى الربانية هو الذي أدخل الرمز الأسطوري، أي ما له علاقة بالديانة السرّية المقدّسة لذلك نجد أنّ بطولات جلجامش وملاحمه تتحول أسطورياً مع تماسّها فقط مع عنصر ربوبي كعشتار وثور السماء وخمبابا وغيرهم، فالتدوين عند القدماء لو أردنا أن نقيسه ونُحاكيه هو كاحتفاظ العرب بمعلّقاتهم التي تمثّل أجود الفنون الشعرية التي تليق بالحفظ والتداول الشعبي لا أنّها تمثّل أفضل تدوين للحقيقة وللحكمة وأبسطها وأنقاها .

ولا بدّ لفهم الأساطير من ملاحظة البساطة (لا السذاجة ولا البدائية) التي عاشها الأوّلون، الذين كانوا قريبي العهد بالإنسانيّة الأولى، وقد كانت الحقائق

والاعتقادات والطبيعة تشغل مساحة كبيرة من أذهـانهم، فاسـتخدموا الأسـاطير لتكون قالبا لتعليم السلوك والدين وتثبيت الاجتماع والنظام، ولقد كانوا يُجسّدون الفكرة ويصوّرونها في حياتهم حسب محسوساتهم، فلم يستخدموا التجريد بالطريقة التي نعرفها اليوم، وعبّروا عن أفكارهم بلغة عفوية تقترب من الطبيعة إلى حدّ كبير وتعمل على توظيف الظواهر والممارسات والأدوات لخدمة الفكرة، فأسماء الله الحسنى تتّخذ لديهم تشخّصات طبيعيّة لتناول الفكرة، فاللطيف قد يُجسّد بالهواء، والرحيم قد يُجسّد بالأم كونه مركز الرحمة الأرضية، والمعاقب قد يُجسّد لديهم بالرعد والبرق، والشمس (شمش) تقوم مقام القيّوم، وهي الشهيد القائم على كلّ نفس بما كسبت، وهي كذلك العادل، وهي وجه الله الذي أينما نولّي نجده، الكاشف بنوره لكلّ خبء، فهي لغة رمزية ينبغي أنْ نفهم ترميزاتها ومراداتها جيدا لئلاّ نجحف بأهلها. والقوى المخلّقة الموكلة بتدبير الأمر على الأرض تسمى في الأساطير أرباباً وليس آلهة كما تعبّر عنه الترجمات، ولا غضاضة على قدامى العرب بحسب مستوياتهم الثقافية واللغوية حين أطلقوا على الملائكة "أربابا" فالربّ عندهم بمعنى السيد المستوجب المحبة والطاعة، على اعتبار أنّها –أي الملائكة– تقف وراء ظواهر الطبيعة وتسيّر قواها وقوانينها، كما نُسمّيها نحن اليوم بإرشاد الدين الخاتم الكامل "أسباباً" و"قوانين" و"وسائط" و"تجلّيات" و"رُسل ربّانية" فالأمر واحد لأنّه يتناول الوظيفة لا العبادة، ومفاده أنّ لهذه الأرباب السلطان والقدرة، وأنّه يجب عليهم أنْ يخضعوا لها ويطيعوها لأنّها قوانين ونُظُم، وإلا فإنّ الضياع والهلاك جزاء من تمرّد عليها أو عصاها، لذا فإنّهم لمْ يتوسّلوا لها بالعبادة والتوحيد، فقد حافظوا على إيمانهم بالإله الواحد، ولم يشركوهم به كحال الوثنيّين، بل كانوا يقولون في ضمن أساطيرهم أنّ فوقها مدبّراً مالكاً هو ربّ الأرباب، إله الآلهة. فهم لمْ يُخطئوا حين جعلوا كلّ مَن هو مفترض الطاعة ربّاً، ونحن نسمّيه اليوم معلّما ومربّياً، فلغتهم –التي يستخدمونها– تُسوِّغ لهم أنْ يُسمّوا أمير الجند ربّاً، والمعلّم، والملك، والقاضي، والمشرّع، أرباباً، وهم لا يعنون أنّ هذه الأصناف كائنات غير بشريّة، ولا أنّهم غير مخلوقين فيستحقّون العبادة والتأليه، بل عنوا أنّهم يستحقّون التبجيل والطاعة والإذعان وخلافة الله فيهم. فضلاً أنّ اللغة لمْ تتخصّص مفرداتها بعد، فالله ربّ، والمدبّرون أرباب، وقوانين الطبيعة أرباب، وساسة المدينة أرباب.

نجد كذلك أنّ البابليين يجسّدون خالق الكون ومدبّر الأمر الأعظم بالقمر، ويسمونه سين، وهو الذي يراقب بنوره ما يجري على الأرض، يقول صاحب كتاب سلسلة الأساطير السورية أنّهم كانوا "يمثّلون القمر في النقوش الفاخرة جالسا على عرش وذا لحية تتدلى على صدره، وعدا عن الفأس التي يحملها أحيانا فإنّه يمسك بيديه الصولجان والعصا رمز الملوكية"[1]، إنّه رمز للعلي الأعلى، فتصفه كلمات الأسطورة:

من أكبر منك، من أكبر منك، أنت وحدك القدير

وإذ يدوّي صوتك في السماوات، فإنّ الإيجيجي[2] يسجدون

وإذ يمرّ صوتك في الأعالي كأنه هبوب الريح، فإنّه يبعث الحياة في المراعي وموارد الماء ."[3].

أمّا الخرافة، فهي سردٌ من نسيج الخيال، ولا علاقة لها بالواقع ولا بأيّ حدث واقعي، لأنّها مؤلّف قائم على الخيال سواء كان فرديا أو جماعيا، يقول الدكتور أحمد كمال زكي: "نستطيع أنّ نقول أنّ الحكاية الخرافية لا تعتمد الحدث أساساً لها، وإنّما تعتمد البطل"[4]، والخرافة قد تنسج لغايات أخلاقية أو توجيهية كالحثّ على التزام الخلق الطيب والنفور من المساوئ وقد تتضمّن رسائل من مثل تمجيد القوي وصاحب السلطان، أو قد تروى لمجرّد التسلية والترفيه إلا أنّها تعتمد على مبدأ نسب الخوارق والبطولات لعناصر الخرافة وشخصياتها الرئيسة. شخصيات الخرافة هم من البشر أو الحيوانات أو الجنّ والعفاريت، وفي جميع الأحوال فإنّ الخرافة هي نسيج لا يحمل

---

[1]- رينيه لايات وآخرون ، **سلسلة الأساطير السورية**- ديانات الشرق الأوسط، ص٠ ٣٣.

[2]- هم الملائكة المتأجّجة الذين يُحيطون بالجنّة الأرضيّة/السماويّة، إشارة إلى إدراك الأولين بحقائق من العالم العلوي.

[3]- رينيه لايات وآخرون ، **سلسلة الأساطير السورية**- ديانات الشرق الأوسط، ص ٣٣٣.

[4] – أحمد كمال زكي، **الأساطير**، ص ٦٣.

أصلاً واقعياً بغض النظر عن موضوعه النافع الحامل للمواعظ والعبر، فحكايات مثل حكايات كليلة ودمنة أو ألف ليلة وليلة وحكايات شهرزاد هي في الحقيقة تحمل من المواعظ والعبر الشيء الكثير، وعلى الرغم من أنّ أحداثها تدور حول حيوانات أو بشر أو أشياء كالجبال والبحار وغيرها وقد تحمل مضامين راقية إلا أنّها غير واقعية ولا تمتّ إلى الحدث الحقيقي في شيء، فلم يكن هناك أرنبا في يوم من الأيام خدع أسداً ولم تكن الحمامة قد تحدّثت إلى مالك الحزين تشكو إليه اعتداءات الثعلب عليها (هذا إذا لم تكن رموزاً لشخصيات أو مراكز قوى حقيقية تاريخية وإلا فإنها نوع من الأساطير)، ولم يكن هناك جنيّا يظهر من المصباح يكون رهناً بيد علاء الدين يعمل على تحقيق أمانيه، وليس ثمّة مغارة تفتح بكلمة سرّ يهتدي إليها علي بابا الرجل الفقير الطيّب ذو الأخلاق الرفيعة ويتمكّن من قتل الأربعين لصّاً ويصبح مالكاً لثروة المغارة فيساعد الفقراء والمحتاجين، كما لا يوجد رجل يتحوّل إلى سوبرمان ينذر نفسه ويستخدم قواه الخارقة لفعل الخيرات وتحرير البلاد من الأشرار، كل هذه الأمثلة من الخرافات في ثقافات مختلفة، تشترك مع الأساطير في شكلها العام من حيث غناها بالخيال وامتلائها بالمحسّنات والاستعارات والأحداث الخارقة، إلا أنّها أنسجة غير واقعية، وغالبا ما تتحوّل مثل هذه الروايات إلى حكايات مسلية تتولّى الجدّات روايتها على الأطفال وقد تضاف إليها أو تنقص منها فقرات أو مقاطع مع انتقالها من جيل إلى جيل، لأنّها تعكس الواقع والمستوى النفسي والثقافي لهذه الجماعة أو تلك.

- **عنترة ـ حاتم نموذجان أسطوريان**

لا بدّ أن تقوم الأسطورة على حدث حقيقي تاريخي، فحين نسمع حكاية عنترة مثلا، نجدها مليئة بالأحداث البطولية الخارقة، فعنترة البطل قادر على قهر جيش بأكلمه وبإمكانه أن يمعن في قتل آلاف المقاتلين الأشاوس، فهل عنترة شخصية أسطورية أم خرافية، لو سلّطنا المعيار الذي وضعناه للتمييز بين الأسطورة والخرافة وهو معيار الواقعية، فسنسأل هل وُجِدَ في تاريخ العرب فارس وشاعر اسمه عنترة العبسي اتّصف بالشجاعة والنبل، خطب ابنة عمه عبلة فلم يزوجوه إيّاها فقضى

حياته ينظم شعرا فيها، إنّ هذا السؤال هو ما يهمّ المؤرخ معرفته والبحث عن الدليل العلمي له، فحين يثبت لنا التاريخ أنّ هناك معلّقات باسم عنترة يتحدّث فيها عن بطولاته في الحروب، ويسرد فيها حبّه وعشقه لابنة عمّه ويبين كيف مُنِعَ منها وهو خير من يستحقّها، حينها يمكن القول أنّ عنترة شخصية حقيقية ذات طابع أسطوري، إذن الحدث التاريخي هو المهمّ وليس ما عَلِقَ به من محسّنات وزيادات.

حكاية أخرى عن الرجل الأسطورة حاتم الطائي المعروف بنبله وكرمه وشعره وشجاعته، "وكان حاتم مظفرا إذا قاتل غلب وإذا غنم أنهب وإذا سُئل وهب وإذا ضرب بالقداح فاز وإذا سابق سبق وإذا أسر أطلق"[1]، وفي التراث أنّ أحدا نوى قتل الطائي وكلّما وضع السيف على عنقه لم يستطع قتله والسبب أنّ اللّه يحبّ الطائي لكرمه فلا يعمل فيه السيف، وفي حكاية أخرى عن الطائي تقول أنّ أخ الطائي أراد أن يفوقه كرماً، فكلّما قام بفعل سأل أمّه : هل أصبحتُ أفضل من حاتم؟ وهكذا إلى أن أجابته أمّه ذات يوم قائلة: يا بُنَي لن تكون يوما أكرم من حاتم، فعندما كنتَ رضيعاً أنت وحاتم كان هو يُبّقِي لك من الحليب، لكنّك كنتَ تشربُ كلّ الحليب حتى الذي كان يبقيه!! فهل كانت هناك شخصية تاريخية تحلّت بالكرم وقدّمت صورا فوق العادة من صور الإيثار والعطاء، نعم فلقد أثبت لنا التاريخ ذلك من خلال حديث حاتم عن نفسه وحديث غيره من الشعراء والأدباء عنه، وذكر رسول اللّه (ص) له حين أسر قومه وأطلق سراح ابنته كرامةً له، فالقصة إذن لها مادة واقعية وإن خالطتها المحسّنات والتفاصيل الخيالية.

الأسطورة إذن تشترك مع الخرافة في أنّ كليهما يحتوي على المحسّنات والزيادات اللفظية، فالأسطورة كما الخرافة تماماً تهدف من خلال تلك المحسنات اللفظية أو الاستعارية أو التشبيهية أو البيانية، ومن خلال صياغتها على أنماط شعرية، تهدف من وراء ذلك كلّه لأن تصبح مقرّبة من أذهان وقلوب الناس ولتكون سهلة الحفظ والنقل، حيث أنّها كانت تنقل شفويًا من جيل إلى جيل.

---

[1] – شوقي عبدالحكيم، **موسوعة الفلولكلور والأساطير العربية**، ص٢٢٢.

- **جلجامش ـ نموذج أسطوري**

ولأنّ الأسطورة تقوم في الأساس على الحدث التاريخي، فإنه ينبغي تجريدها ممّا علق بها من محسّنات لكي تُستَنبَط منها المادّة التاريخية وتُستخلَص منها الحقائق المدسوسة فيها، خاصة في قضايا خلق الكون والوجود والإنسانية، إذ أنّ هناك لبّاً وحقيقةً ناصعةً موجودة في ثنايا الأساطير، فأسطورة جلجامش كان ينظر إليها كقصة خرافية تتحدّث عن بطل اسمه ووصفه خرافي وأنّها لا أساس لها من الصحة التاريخية ولا تمتّ إلى التاريخ بواقع، ولكن اكتشفت الآثار والتنقيبات في مدينة أورك في جنوب العراق التي جاءت تبحث في الأصل عن آثار بابلية، بأنّه قد كانت هناك حضارة سومرية عظيمة في تلك المنطقة سبقت الحضارة البابلية، وتبيّن فيما بعد أنّ جلجامش هو في قائمة الملوك الذين حكموا أورك على ضفة الفرات الشرقية، وأنّه بنى الأسوار لمدينة أورك وقاد شعبه في كثير من المعارك، واعتمد نظام الحكم الديمقراطي بمجلسين خصّص الأوّل للشيوخ والآخر للمقاتلين الشباب، بطل هذه الأسطورة كان سومريا، إلا أنّ الباحثين اكتشفوا فصول الملحمة بلغات مختلفة، فوجدت أولاً في العراق منذ أواسط القرن التاسع عشر حيث كان معظم ألواحها باللغة الآشورية ثم عثر عليها مكتوبة باللغة السومرية على هيئة قصائد منفصلة، وفي منتصف القرن العشرين عُثِر على بعض الألواح التي تشير إلى جلجامش في بلاد الأناضول، كما وجدت أيضا في مجدون بفلسطين ترجمة للملحمة، وعلى الرغم من أنّ بناء الملحمة بصفتها وحدة كاملة متسلسلة الأحداث لم يوجد إلا في النسخة البابلية إلا أنّ العثور عليها بلهجات عربية مختلفة وبأزمان وأمكنة مختلفة يدل على أنّ هذه الأسطورة كانت منتشرة ومعروفة على نطاق واسع منذ قبل الألف الثاني قبل الميلاد ما يدلّ على أنّ الأساطير ومنذ عصور موغلة في القدم تتحدّث عن قضايا يراد لها الخلود والتداول بالألسن من جيل إلى جيل حفظا لها من الضياع، وبمقارنة النص السومري الأقدم مع النص البابلي نجد أنّه يحتوي على إضافات وحذف وتعديل لتتلاءم مع الفكر والمزاج البابلي، حتّى أنّ بعض المعتنين بالأساطير علّق قائلاً: "الرواية

البابلية ليست مجرّد إعادة مبتذلة للأصول السومرية، فالشيء المشترك بينهما ليس سوى الخطوط العامة لأساس الرواية"[1].

أسطورة جلجامش عدّها المؤرّخون قطعة فريدة، فهي بحق من أروع المدوّنات، فهي أول عمل أدبي تجاوز بيئته لينتشر في معظم أرجاء العالم، ولقد تُرجمت الملحمة إلى أكثر من لغة، فتجاوزت زمانها لتستمر أكثر من أربعة آلاف عاماً تنبض بالحياة، تُقرأ وكأنها كُتب خاتمة الأمس، وهي مزيج من البطولة والمغامرة مع الأخلاق والمأساة، تتحدث عن ملك سومري حكم مدينة أورك، يُدعى جل-جامس أي الثور الجليل، وهو بطل تصفه الأسطورة رمزيا بأنّه ذو أوصاف خرافية نصفه إنسان ونصفه الآخر إله، كان في أول أمره باغياً وطاغياً على أهل مدينته "أوروك" في جنوب العراق، وكان طافح الشهوة أزعج سكان أورك بتعاليه وعدوانه على الفتية والفتيات بسيره فيهم بشرعة "عشتار" الإباحية، فقد كان ينتهك الحرمات، حتّى ضجّ الناس من أميرهم واشتكوا من جموحه وغروره، فبعثت القوى الإلهية نقيضَه (أنقيضو/أنكيدو)، ليُعارضه ويُصارعه، وبعد صراع ومواجهة شديدة بين الاثنين، يتغيّر فكر جلجامش ويتعاهد الرجلان على أن يكونا صديقين وفيين لبعضهما مدى الحياة، وتبدأ مغامراتهما للوصول إلى بلاد قوى الأرباب والمدبّرين أو أرض الخلود، وهنا تدخل القصة في فصل من نوع آخر يغلب عليه البطولة والخوارق من مثل محاربة الصديقين لخمبابا ومصرعه على يديهما، ثمّ الموت الدرامي لصديقه أنكيدو، ومحاولة جلجامش في رحلته الثانية لقهر الموت والوصول إلى أرض الخلود، ولقائه هناك بأتونوبشتم الذي شرب من عين الحياة فلم تناله يد المنون، وتختتم الأسطورة بالنهاية المأساوية لجلجامش وعجزه عن تحقيق حلمه. تنصّ الملحمة في اللوح الأول:

سأعلن للعالم عن مآثر جلجامش

الرجل الذي كان يعلم كلّ شيء

الملك الذي عرف كلّ أقطار العالم،

[1] - وديع بشور، **الميثولوجيا السورية** - أساطير آرام ، ص ٣٥٥.

كان حكيما، رأى الخبايا وكشف الأسرار،

وأخبرنا قصة عن أيام من قبل الطوفان،

ذهب في رحلة طويلة، تعب وأنهكه العمل،

ولما عاد حفر القصة كلّها على الصخر -[١].



(الصورة: ٣) الأمير السومري جلجامش

إذن الأسطورة تتحدّث عن مادة تاريخية وتحكي قصة الملك الحكيم جلجامش صاحب البطولات الكبيرة والمآثر النافعة الجديرة، فتلك الشخصية ليست شخصية أسطورية، وإنّما هي شخصية حقيقية أوتيت المعارف والعلوم وكشفت لها الأسرار عبر اتصالها بالعوالم العليا.

---

[١] - وديع بشور، **الميثولوجيا السورية** - أساطير آرام ، ص ٢٦١ .



(الصورة: ٤) رسم يمثل جلجامش وصديقه أنكيدو

- **قدموس ـ سمير أميس ـ وطوفان نوح نماذج أسطورية**

وتعتبر أسطورة قدموس وأخته أوروبا مثال آخر على الأصول التاريخية للأساطير وإن تمازجت بصور الخيال والبعد عن الواقع، فقدموس هو ملك مدينة صور العربية على سواحل لبنان وهو الذي علّم اليونانيين زراعة العنب والمعادن والحروف الهجائية، وأخته أوروبا العربية هي التي أعطت للقارة الأوروبية اسمها، والحكاية طويلة لمن أراد التعرف على تفاصيلها[١]، ورغم صياغتها في شكل غير واقعي إلا أنّها تحتوي على مضمون واقعي حقيقي، فأوروبا (عروبا) فتاة انتقلت إلى البلاد التي تقع في مواجهة آسيا، ومنذ ذلك الوقت سميت بأوروبا نسبة إلى هذه الأميرة العربية وشملت التسمية جميع البلدان الواقعة على الجزء الشمالي من البحر المتوسط المسمّى تاريخياً ببحر أموريا نسبة إلى الآموريّين سكّان شمال الجزيرة العربية، تحكي أسطورة أوروبا قصة أميرة عربية سكنت مدينة صور اختطفها ثور هائل ونقلها على ظهره إلى الضفة الشمالية من البحر، وعلى أثرها انطلق أخوها الأمير قدموس للبحث عن أخته والانتقام لمن خطفها وهنا تدخل المحسّنات والصور الخيالية التي تعطي للقصة طابعا

[١]- تفاصيل القصة في كتاب الشاعر أوفيد، **مسخ الكائنات**، ص ٦٩، ٧٥.

قصصيا مشوّقا، إذ يلتقي قدموس في طريقه بالعديد من الآلهة إلى أن يلتقي بالإلهة أثنيا التي تقوده للمواجهات ينتج عنها استخلاصه لعدد من الجنود، يدعوهم إلى بناء مدينته قادميا القلعة المكتشفة في بلاد اليونان، فأوروبا فتاة عربية وقدموس أخوها عربي شخصيتان حقيقيتان يرجع لهما فضل نقل الحضارة إلى أوروبا كما دلّت عليه المكتشفات الأثرية هناك.



(الصورة: ٥) الأميرة أوروبا يخطفها الثور

ومن الأساطير أيضاً أسطورة سميراميس الملكة الإلهة (أي الربّة المعلّمة) التي شيّدت مدينة دمشق وأقامت حولها سورا، كما ينسب إليها بناء القباب التي ما تزال سارية في الطرازات المعمارية السورية، هذه الملكة التي علا سلطانها ووصل إلى أطراف العراق وتركيا والجزيرة العربية تتحدث الأسطورة عنها أنّها مولودة من رحم أمّ سماوية كانت قد تركتها في الخلاء عقب ولادتها، فتعهّدها بالرعاية سربٌ من الحمام، كما أنّها حين ماتت تحوّلت إلى حمامة، هذا الجزء المضاف في الأسطورة هو من قبيل المحسّنات التي تحدّثنا عنها، ولكن ذلك لا يحجب حقيقة وجود شخصية تاريخية ملكت الأرجاء هي الملكة العربية سميراميس.

الطوفان العظيم أو ما يعرف بطوفان نوح ذُكِرَ أيضا في الأساطير، وتعرض الأساطير القصة في الحقيقة مع بعض المبالغات والتفاصيل الرمزية فتقول أنّ الآلهة اكتشفت أنّ الإنسان لم يحقّق الغاية التي من أجلها قد خلق، وأنّه قد عاث في الأرض التي أمّنه الأرباب عليها فنشر فيها الفساد وسفك الدماء، وعلى ذلك اجتمعت القوى الموكلة بالأرض (الآلهة حسب الترجمات) واتّخذت القرار بإفناء الحياة على الأرض وتطهيرها من هذا الجنس لتبدأ بعدها مشوارا جديدا طاهرا، فاختارت رجلا حكيما صالحا أوكلت له مهمة بناء سفينة هائلة يحمل فيها أهله، وزوجين اثنين من كلّ الحيوانات، الراكبون في هذه السفينة وحدهم الذين نجوا وعادوا إلى عمارة الأرض بعد أن جفّ الماء، نجد مثل هذه الأسطورة تتكرّر لدى السومريين والبابليين وفي التوراة وكذلك عند الإغريق مع بعض الاختلافات، بل نجدها في أساطير شعوب متفرقة من العالم[1]، كشعب بوليفيا ونيوزيلندا، وهنود أمريكا الشمالية. كان الغرب ينظر لهذا الحدث كنوع من الخرافة، إلى أن دُرِسَت المنطقة العربية جيولوجيا فتبيّن بأنّه حدث فيها عدّة طوفانات أكبرها الطوفان الذي وقع حوالي ستة آلاف سنة قبل الميلاد، وهو نفسُه طوفان نوح المذكور في القرآن الكريم والذي ورد ذكره عند البابليين في قصة جلجامش عند حديثه مع "أتونابشتم"، وفي أسطورة نيبور وملحمة خاصة باسم "أتراحيسس"، كما ذُكَر في أساطير سومرية وأساطير سورية، وذُكَر أيضا في التوراة التي تعتبر بمثابة كتاب تاريخ وسجل وثائقي لأخبار وأحداث وتجارب المنطقة العربية، وبغض النظر عن تحريفهم وأخطائهم في تدوينها من جهل ونسيان وقلة فهم وأهواء، فهو تاريخ مسطور على أي حال.

رابعاً - أنواع الأساطير

ليست كلّ الأساطير تشير إلى موضوع واحد، أو تقصد هدفا واحدا، وعلى الرغم من اختلاف موطن الأساطير وأزمنتها إلا أنّه يمكن تصنيفها حسب موضوعها

---

[1] - راجع بحث: **طوفان نوح**- بين الحقيقة والأوهام، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

وغرضها ووظيفتها الأساسية بغضّ النظر عن مصدرها، وليس يخفى أنّ لتصنيف الأساطير دوراً كبيراً في فهمها وإدراك معانيها، وتصنّف الأساطير حسب وظيفتها كالتالي:

أ- الأساطير التعليمية

لقد ارتبطت الأساطير بسلّم التطوّر الحضاري الإنساني، وتحمل الأساطير من هذا النوع مضامين ذات غايات تعليمية، فقد كانت الأساطير وسيلة استعملها الإنسان الأول بسبب ما تمتلكه من طابع مقدس وصفات تعين سامعيها على تصديقها والتفاعل معها للمساهمة في تعليم وتركيز مبادئ إيل[1] في مرحلة الانتقال من الزواج العشوائي إلى الأسرة والاستقرار والمثل والأخلاق، إلى جانب ذلك اهتمّت الأساطير التعليمية بتعليم مبادئ الزراعة وفنونها، والزراعة كما نعلم مرتبطة بالأسرة وحياة الاستقرار.

ففي الأسطورة السومرية والتي تحكي عن زواج أنانا (وإنانا هي عشتار عند البابليين وعناة عند الأوغريتيين) من ديموزي وهو هنا يمثّل دور الراعي الشاب و"أنكمدو" وهو الفلاح صاحب السدّ والساقية والمحراث وهو الذي فضّلته أنانا في أول الأمر في مقابل الراعي ديموزي، لأنها ترغب في حياة الاستقرار، والزراعة من عوامل الاستقرار، أمّا الرعي الذي يمثّل المرحلة التي سبقت الزراعة فيرتبط بوضعية عدم الاستقرار والحاجة إلى الانتقال، فغاية الأسطورة هو تركيز مبدأ التعايش بين المهنتين بحيث ينتفع كل صاحب مهنة من مزايا المهنة الأخرى في حالة من التكامل الذي تتطلّبه عملية بناء الحضارة. هذه الأسطورة تقع في دراما طويلة ضمن حوار طويل بين أبطال الأسطورة، ويتم فيها استعراض مميزات كلّ مهنة على المهنة الأخرى، ويشترك أخو أنانا "أوتو"[2] في أحداث الأسطورة حيث ينصحها أن تختار من هو أكثر

---

[1] - إيل في الأساطير هو الله، ومبادئ إيل المقصود بها شريعة الله التي حملها الأنبياء التي سعت نحو تكريس شريعة القيم والأسرة، مقابل شريعة الهمج والإباحية.

[2] - أوتو هو رب العدالة عند السومريين،ويقابله شمش عند البابليين.

نفعا للبشر وهو الراعي حسب رأيه، في حين أنّها تفضّل الفلاح، فتقع مناظرة بينهما يستعرض فيها كلّ منهما مزايا مهنته وأهميتها، تقول الأسطورة:

أخاها، البطل، المحارب "أوتو"

يقول لأنانا الطاهرة: يا أختاه دعي الراعي يتزوّجك،

يا "أنانا" العذراء، علام أنت راغبة عنه؟

إنّ زبده طيّب، وحليبه لذيذ

وأي شيئ مسّته يد الراعي يصبح زاهياً

يا "أنانا"، دعي الراعي "دموزي" يتزوّجك .

فتجيب أنانا بالرفض، حيث أنّها ترى أنّ حياة الزراعة أرقى وأفضل ..

أنا لن يتزوجني الراعي

وبحلته الجديدة سوف لا يكسوني

وصوفه الناعم سوف لا يغطيني

أنا العذراء، الفلاح سيتزوجني

الفلاح الذي يجعل النباتات تنمو بوفرة

الفلاح الذي يجعل الحبوب تنمو بغزارة ."[١]

هنا وفي محاولة شخصية منه لإقناع أنانا به يتدخّل الراعي "ديموزي" مستعرضا منافعه وأعماله العظيمة وما يقدّمه من لبن وجبن وزبد وحليب وهي في نظره خيرات تفيد البشرية، هذا الخصام بين الاثنين جعل أنانا تقتنع به، ديموزي بحنكته توصّل إلى حلّ التنازع بين المهنتين، فقد دخل في خصام مع الفلاح أنكمدو إلا أنّ أنكمدو رفض الدخول في الخصام وعرض عليه أن يكون صديقا له وأن يرعى أغنامه في حقوله لتأكل من حبوبه وتشرب من ماء جداوله، بعدها تعمّ حالة الرضا عند أبطال

---

[١] – وديع بشور، **الميثولوجيا السورية**– أساطير آرام، ص ٢٣٠ .

الأسطورة وينشرح الجميع لحالة التعايش والتكامل والتي يتم فيها الاحتفاظ بالمهنتين الأوليتين في حياة الإنسانية الرعي والزراعة في حالة وئام وانسجام، والقناعة بأنّ الإنسانية بحاجة إلى المهنتين دونما تنازع أو منافسة، وهو في الحقيقة درس كبير ساعدت الأسطورة كثيرا على ترسيخه في الأذهان.

وهذا بالتمام ما حكاه القرآن كصورة من الواقع التاريخي بين البداوة والحضارة (الرعي والزراعة) ذلك الصراع الذي استمرّ أحقابا طويلة كان للأنبياء والمرسلين دور أساس فيه، وبتدخل من السماء وبتوجيهها يتمّ التوفيق بين هاذين الاتجاهين كواقع حضاريّ وإزالة الخصام بينهما ريثما يذوب القديم في الجديد، هذه الحالة عرضها القرآن الكريم ضمناً في قصّة داود وسليمان وتحكيمهما بين الراعي والفلاح، حيث أنّ مرحلة داود "جبليّة" رعويّة، أمّا مرحلة سليمان فرعويّة-حضريّة، هذا الصراع انتهى بسيادة حكم سليمان التوفيقي التصالحي تحقيقا للتعايش بين الفكرين، (**وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**)(الأنبياء:٧٨، ٧٩).

ومن الأمثلة على الأساطير التعليمية الأسطورة البابلية المعروفة باسم أنشودة ألم الأسنان، وهي بمثابة التعويذة أو الرقية لتجنب ألم الأسنان، وتظهر كيف أنّ جميع أنشطة الإنسان الأول وهمومه ارتبطت بالعوالم العلوية أي بالأرباب أو بالملائكة الموكّلين بتنظيم الكون، بل الحقّ أنّ الإنسان منذ كان وإلى اليوم-مع استثنائنا المدّ المادّي الذي حرف بعضَه- دائماً يُوظّف الأرباب وقوى السماء في مواعظه، فلا تخلو قصّةٌ وعظية أو تعليمية أو حكاية شعبية ذات عبرة من الاشتمال على عنصر إلهي أو غيبي أو قوّة خفيّة فيها، وقد كان الاعتقاد بأن مختلف الأمراض التي عانوا منها مردّها إلى قوانين طبيعية قدّرها الأرباب منذ خلق الإنسان، وتحمل الأسطورة مضمون الإيمان بتلك القوانين الطبيعية كمسبّبات للأمراض، فسوسة الأسنان كغيرها من المخلوقات مقدّر لها الحياة وفق قوانين الطبيعة، ومن حقّها أن تحصل على قوتها وشرابها الذي وجدته في الأسنان واللثة، وللوقاية من ألم السوسة توصي الأسطورة

ليس بالتضرع للآلهة ولا بالتوسّل بالسحر لرفع الألم، وإنّما باستخدام الدواء المتوفر في الطبيعة، مع تلاوة رقية على المريض كنوع من التعويذة، تقول الأسطورة[1]:

"**بعد أن خلق "آنو" السماء**

خلقت السماء الأرض

ثم خلق الأرض الأنهار

وخلقت الأنهار القنوات

ثم خلقت القنوات المستنقع

وخلق المستنقع السوسة،

نلاحظ علماً كامناً في كلمات هذه الأسطورة، فاعتقادهم أنّ كل شيء مخلوق بقدر، بدءا من السموات والأرض إلى ذراتها الصغيرة، بعدها تروي الأسطورة حكاية الدودة المخلوقة الصغيرة التي تطالب ربّها بتوفير رزق لها:

"**ذهبت الدودة تبكي أمام "شمش"**

وانهمرت دموعها أمام إيا

ماذا ستعطيني ليكون قوتا لي؟

ماذا تعطيني شرابا لأمتص؟

سأعطيك التين الناضج

وسأعطيك ثمار المشمش"

ولكن الدودة –كأي مخلوق– المقدّر لها الحياة تأبى إلا أن تأكل ما يضمن لها حياتها فالتين والمشمش ليس من قوتها، تقول الدودة :

---

[1] – فراس السواح، **الأسطورة والمعنى**، ص ٧٥؛ قاسم الشواف، **ديوان الأساطير**، الكتاب الثاني، ص٥٦؛ وديع بشور، **الأساطير السورية**- أساطير آرام، ص ٣٤٥.

"بل ارفعني وبين الأسنان

وبين اللثة اجعل مسكني

قدم الأسنان سوف أمتص

وجذور اللثة سأقرضها!"

هكذا حصلت الدودة على طعامها ومسكنها في البقايا المخبوءة بين الأسنان، إلا أنّ الخالق "أيا" الذي قدّر لها حياتها بفساد الأسنان واللثة، كذلك قدّر لها ما يقضي عليها، فتنتهي الأسطورة بكيفية علاج الدودة :

" ثبّت الإبرة وامسك قدمها

لأنّك قلت هذا أيّتها الدودة

ليضربك "أيا" بقوة ذراعه"

هي أسطورة تعلّم الإنسان بالشعر والترانيم حقيقة غاية في الأهمية عليه أن يفهمها لانتظام حياته، هي مبدأ الإيمان بالقدر (وهو النُظم الكونية الحاكمة التي لا تبديل لها) والتسليم بوجود الأسباب لكلّ شيء، وأنّ القضاء إنّما يردّ بقضاء آخر قدّره الخالق أيضاً، فكما قدّر الله تعالى وجود الدودة وحياتها على حساب مخلوق آخر، قدّر كذلك طرقاً لعلاجها وطالب الإنسان بضرورة الأخذ بالأسباب ومقاومة هذا الوجود المتطفّل بأساليب العلاج الطبيعية، وهو ما يدلّ على عمق إيمان القوم بالله ومعرفتهم بنظام الخلق.

هناك أيضا ملحمة "بعل" من أساطير حضارة أوغريت في سوريا، وهي مجموعة قصص زراعية أوغاريتية وُجِدَت منقوشة على سبع ألواح، تتألّف من ثلاثة مواضيع، هي المعركة ضدّ يمّ، وبناء قصر بعل، والصراع بين بعل وموت، من أهمّ غايات هذه الأسطورة هو تعليم الإنسان آليات الزراعة بأدوات زراعية من محراث ومعول وغيرها، وما تتضمّنه من مفاهيم تخصيب الأرض والحصاد، حيث يذكر المؤرّخون أنّه في تلك المنطقة اكتشفت أدوات زراعية تعود إلى تسعة آلاف عام قبل الميلاد. تقول الأسطورة أنّه حينما مات ربّ الخصب البعل، أو دِموز، أو تموز أو أدوني، فكلّها تسمية لشيء

واحد هو ربّ الخصب، الذي مات في شهر دموز (تمّوز)، هي إشارة رمزية لموت الزرع والخضرة في هذا الشهر الصيفي من السنة، ثم عودة الخصب في موسمه الثاني بعمليات الحرث والبذر، تمثّل هذا الدور عناة التي ترمز لـ "العناية الربانية" في المحافظة على حياة الكائنات وخصبها، حيث تسعى عناة بنوحها وبكائها وإلحاحها لأجل عودة بعل وقيامته من جديد، تقول الأسطورة في مقاطع متفرقة:

راحت تفتش عنه في كل مكان .

حتى وجدت "بعل" .

وقد سقط صريعا على الأرض

خدشت وجهها

أدمت ذراعيها .

رفعت صوتها، نادت: مات البعل

هيا ننزل إلى باطن الأرض .

فنرفع "بعل" القدير .

فانتشلت "بعل" القدير

وعلى كاهل "عناة" وضعته

ناحت عليه وقبرته .

وضعته في جوف الأرض .



(الصورة: ٧) صورة لبعل

بعدها توجّه "عناة" خطابها إلى موت، وتخاطبه باعتباره مصدرا للقوة والقدرة، حيث عبّرت عنه بأنّه "ابن إيل" أي هو أحد الأنظمة المقدّرة الموضوعة لتسيير الكون، هو قانون الموت، وهو هنا المسئول عن يباس الزرع فتناديه عناة وتدعوه أن يعيد إليها "بعل" بقوته وهيمنته ولكنّه يجيبها بأنّ دوره في النظام الأخذ والسلب لا العطاء والمنح وهي حقيقة الموت، فينصح عناة أن تفكّر بطريقة أخرى لاسترجاع بعل، تقول الأسطورة :

ترفع صوتها وتصيح: يا موت ردّ لي أخي

ويجيب "موت ابن إيل": ماذا تريدين أيّتها البتول؟

لقد همت وتجولت كلّ جبل حتى قلب الأرض

وكل تلّة حتى أحشائها

لقد فقد الناس نسمة الحياة .

لقد مضغت "بعل" القدير

وجعلته كالحمل في فمي، وسحقته كالجدي في حلقي

حتى نيرة الآلهة (شمس)

التي تفرش جناحيها على السماء

تقع تحت يد "موت ابن إيل"

"موت" يدرك دوره تماماً فهو قانون الفناء الذي لا مفرّ منه، فـ"كلّ من عليها فان"، قانون عرفه الأوّلون وآمنوا به وأدركوا أنّه قانون جارٍ على سائر الكائنات بما فيها الزروع والأشجار، الأسطورة تهدف إلى بيان تلك المعلومات القيّمة وتركيزها في النفوس، دون أن يعني ذلك الاستسلام لقانون الفناء، فلا بدّ من طريقة لمقاومته، وهذا ما جعل عناة تصرّ على مطلبها وتتحدّى موت، أي يباس الزرع، وتبتدع أسلوبا لمقاومته والتغلّب عليه، تقول الأسطورة :

"مرّ يوم وبعده مرّت الأيام

ويزيد في "عناة" الحنين

وقلبها كقلب البقرة لعجلها

وكقلب الشاة لحملها

هكذا قلب "عناة" نحو "بعل"

وتمسكُ بـ"موت ابن إيل"

وبالسيف شطرته ـ وبمنجلٍ قطّعته

وبمذراة ذرته ـ وبالنار أحرقته

وبجاروش جرشته ـ وفي الحقول بذرته

فتأكل بقاياه العصافير ـ تستهلك أجزاءه

وتفر من بقية إلى بقية ."[1].

وعلى عادة الأساطير التي تتغير فيها الأدوار حسب الفكرة المراد إيصالها فإن الصورة هنا لعناة تأتي إلى موت، الذي أخذ دور آخر هنا فهو أصبح الزرع بعد يباسه، فتقطّعه بمنجلها إربا إربا إشارة إلى عملية تقطيع وتكسير واقتلاع الزرع اليابس وهي مرحلة من مراحل الحصاد، ثم بعد ذلك تعمد إلى ذرّه في الحقول وهي مرحلة التزريع، ليس ذلك فحسب بل إنّ عناة تعلم أنّ العصافير تحطّ من حقل إلى حقل، وأنّها ستتولّى تقديم المساعدة في عملية توزيع البذور في أنحاء الأرض، فهذه أساليب عناة لاستعادة بعل من جديد، وهي عينها عملية الزراعة بنشر البذور كما يعرفها إنسان اليوم، فبعد موسم الحصاد تُدّفَن البذور في الأرض بعد حراثتها، من أجل أن تعود الحياة للزرع مرة أخرى وبهذا يبدأ موسما زراعياً جديدا.

هناك الكثير من المدوّنات التي عثر عليها المنقّبون في المناطق العربية التي تعكس مدى التطوّر الحضاري الذي كانت عليه الشعوب القديمة في مجال الفلك والأرصاد الجوية والرياضيات والطب، وهي علوم راقية أُخذَت مبادؤها الأولى من معلّمين ربّانيين اتّصلوا بشعوب هذه المنطقة فكانت الأسس التي بُنِيَت عليها العلوم إلى يومنا هذا. نكتفي من ذلك بتقديم نموذجين الأول يحكي جانبا من قصة تلميذ مثابر، وهي مدوّنة تدلّ على مدى اهتمام تلك الشعوب بالعلم وإعداد التلاميذ على مستوى راق في مدارس نظامية، نستمع إلى أحد المعلّمين بعد أن يصف الحياة اليومية لتلميذ سومري فيقول:

"أيها الشاب، لأنّك لم تهمل كلمتي، ولم ترمِ بها جانبا

فلعلّك تبلغ قمّة فنّ الكتابة، ولتتمكّن من تحقيق ذلك بتفوّق

ولتصبح قائدا بين أخوتك، ورئيسا بين أصدقائك

ولتصل إلى أعلى المستويات بين التلاميذ

---

[1] – رينيه لايات وآخرون، **سلسلة الأساطير السورية**- ديانات الشرق الأوسط، ص٥٠٠؛ وديع بشور، **الأساطير السورية**:- أساطير آرام، ص ٤٢٠.

ولأنّك أتممت بشكل جيد مهامك المدرسية

ها أنت أصبحت رجل معرفة"[١].

والنموذج الآخر عبارة عن مسألة رياضية بثلاثة مجاهيل، تمتاز باقتضاب وبساطة عرضها، وهي من مدوّنات الحضارة البابلية القديمة[٢]:

لديّ مستطيل، ضربتُ الجبهة بالجانب

فحصلت على المساحة، ثم جمعت الجبهة والجانب

فحصلت على نتيجة تعادل المساحة

وأخيرا جمعتُ الجبهة والجانب والمساحة

فحصلت على مجموع ٩

فما هو قياس كل من الجبهة والجانب والمساحة؟"[٣]

هكذا استخدم الأوّلون الأسطورة بما تحويه من تعابير فنيّه قريبة من المشاعر في تعليم مثل تلك المبادئ الهامّة التي بنى عليها الإنسان حضارته إلى يومنا هذا.

ب- الأساطير الوعظية

هناك من الأساطير ما يدور موضوعها حول الحثّ على التزام الحكمة وبناء القيم، وتأصيل علاقة سليمة بين الإنسان وبين الرب، وتحذّر من مغبة عصيانه أو التمرّد عليه أو منازعته في دوره ومقامه وقدراته، والمتأمّل في هذه الأساطير يدرك مدى علاقة العرب القدماء بالخالق، وهم الذين حضوا بالرعاية الإلهية الخاصة، فقد شهدت أرضهم عملية الخلق الأول للأرض والكائنات والإنسان، وعلى أرضهم عاش

---

(١) – قاسم الشواف، **ديوان الأساطير**، الكتاب الثالث، ص ٣١١.

(٢) – قاسم الشواف، **ديوان الأساطير**، الكتاب الثالث، ص ٣٠٨.

(٣) – وإذا كان القارئ مهتمّاً بالجواب أعلاه فهو (١،٥) و(٣).

آدم الإنسان الأول حافظا لعهده مع ربّه طاويا صفحات الماضي سائرا في درب الهداية وحمل الأمانة، فيفهم من خلال أساطيرهم أنّ توحيد اللّه كان له بقية أثر لا أقل عند حكماء القوم، ولا عجب في ذلك فقد ظهر أنّ على هذه الأرض بُعث كل أنبياء اللّه بلا استثناء، ومن هذه الأرض جاب الأنبياء وأصحاب الأنبياء حاملين شعلة التوحيد شرق الأرض وغربها[1]، وأنّه مهما حاول الباحثون الغربيون التأكيد على أنّ سكان المنطقة العربية كانوا يعبدون الآلاف المؤلّفة من الآلهة، فإنّ ذلك ادّعاء ناجم عن خطأ الترجمات والتفسيرات التي تدحضها تلك الأساطير الزاخرة بعبارات التمجيد والثناء للخالق.

نقرأ من أساطير الحكم حكمة بابلية تدعو إلى الخلق الرفيع حتى مع الخصم:

"لا تُسئ إلى خصمك .

أحسن إلى من يسيء إليك

عامل عدوّك بالعدل

التقوى تولّد السعادة

وتقديم القرابين يطيل الحياة

والصلاة تكفّر عن الذنوب ."[2]

وفي أسطورة أخرى، نقرأ جملا من الفضائل الراقية التي تنمّ عن درجات إنسانية رفيعة عاشها المجتمع العربي القديم:

"كن رحيما مع الضعفاء

ولا تهن منكسري القلوب

ليكن رائدك الخير والخدمة كلّ أيامك

---

[1] – راجع بحث: **نداء السراة**– اختطاف جغرافيا الأنبياء، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

[2] – وديع بشور، **الأساطير السورية**–أساطير آرام، ص ٤٩ .

لا تتلفظ بذم بل قُلْ ما هو حَسَن

وامتدح الناس، ولا تذكرهم بسوء."[١]

وعودة إلى "ملحمة جلجامش" التي نجد فيها عظات وإشارات إيمانية عظيمة، تسمو على مجرد البرهنة على حتمية الموت فتتناول مسألة شغلت الإنسان منذ أقدم العصور، وهي: إذا كان الموت حتمياً، فكيف السبيل للخلود؟ أبسلوك سبيل اللذة والتّنعم في هذه الحياة؟ أم بتقبّل تحدّي قانون الحياة والطبيعة بالقيام بأعمال تخلّده بعد حياته؟

ففي كلام "أتونافشتيم" لجلجامش الذي أتاه باحثاً عن سرّ الخلود، الكثير من العمق والسمو، كلامه يحمل بين طياته تصورات فكرية ودينية وخلقية وفلسفية راقية، تشبه ما نؤمن به اليوم وإنّما جيئ به في حلّة مختلفة تناسب مَنْ لأجلهم كُتبت، وتوافق الزمان الذي كُتبت فيه.

فبعد أن ذكر "جلجامش" لبطل الطوفان المصاعب التي واجهته في الوصول إليه وقبل أن يطرح أسئلته التي أتى من أجلها للقاء "أتونافشتيم" ابتدأه بحكم بليغة تجيب على بعض أسئلته وتطرح عليه مزيداً من الأسئلة تفتح له آفاق الخلود:

... إن الموت قاس لا يرحم

هل بنينا بيتاً يقوم إلى الأبد؟

وهل ختمنا عقداً يدوم إلى الأبد؟

وهل يقتسم الأخوة ميراثهم ليبقى إلى آخر الدهر؟

وهل تبقى البغضاء في الأرض إلى الأبد؟

والفراشة لا تكاد تخرج من شرنقتها فتبصر وجه الشمس حتى يحلّ أجلها.

ولم يكن دوام وخلود منذ القدم.

---

[١] - وديع بشور، **الأساطير السورية**- أساطير آرام، ص ٤٩.

ويا ما أعظم الشبه بين النائم والميّت .

ومن ذا الذي يستطيع أن يميّز بين العبد والسيد إذا وافاهما الأجل؟[١]

وغيرها الكثير من المفاهيم السامية التي لا يرقى إليها إلاّ فكر صفيّ، وقلب نقيّ، وروح طليقة، ولا تُعلَّم إلاّ من قبل معلِّم حكيم.

ومن الأساطير التي تحثّ الإنسان على التزام تمجيد الربّ وابتغاء مرضاته والتضرع له والإنابة إليه، أسطورة "الإنسان وإلهه"، وهي أسطورة تكشف بكلماتها الشعرية الرقيقة عن مستوى سامي يراد بناءه في علاقة المخلوق بخالقه، وحين ندرك أنّ الأسطورة كانت أداة لنشر الثقافة نفهم نوعية الثقافة الإيمانية التي كانت موجودة عندهم في تلك الفترة، تقول الأسطورة:

"يا إلهي أريد أن أقف بين يديك

أريد أن أكلّمك .

وكلمتي أنين وحسرة

أريد أن أعرض عليك أمري وأندب مرارة سبيلي

أريد أن أندب اضطراب نفسي

على أمي التي ولدتني أن لا تكفّ عن الرثاء لي أمامي

لتكفّ أختي عن الترنّم وترديد الأغنية السعيدة

ولتبكِ وتنحْ بمصائبي بين يديك . .

يا إلهي، يا من أنت أبي الذي ولدني،

ارفع وجهي

كالبقرة البريئة بعطف (أصغ) لأنيني

---

[١] – طه باقر، **ملحمة جلجامش**، ص ١٥٠، ١٥١ .

إلى متى ستهملني وتتركني بدون حمايتك

إلى متى ستتركني بدون هدايتك ـ"[1]

نلاحظ أسلوب التضرع والمسكنة في مخاطبة الداعي لإلهه، وهي تشبه إلى حدّ كبير دعاء مروي عن الإمام علي بن الحسين يندب فيه نفسه: "**أللشقاء ولدتني أمي، أم للعناء ربتني فليتها لم تلدني ولم تربني ـ**"[2] ، مع ملاحظة أنّ أسلوب الأسطورة يستخدم عبارات مثل "كالبقرة البريئة" وهي عبارات مستوحاة من البيئة وجدوا فيها الدلالة الموحية للفكرة.

وفي أسطورة "سأمجّد ربّ الكعبة" نشهد صورة أخرى للعلاقة بين الإنسان وبين خالقه، ففيها تركيز على معاني عرفانية راقية تبرز الخشية من الإله والخوف منه وممّا يخفيه القدر، كلّ ذلك بلغة قويّة معبّرة لا تخلو من مقاطع حكمية راقية، قد تفوق أشعار وتأملات العارفين في زماننا هذا، تقول الأسطورة:

"**لقد كانت الصلاة إحساسي**

والقربان واجبي بالحياة

كان يوم تقديس الإله رغبتي القلبية

كانت الصلاة من أجل الملك ـ لي فرحة

والعزف على الأوتار لي رغبة

إنّ ما يبدو للإنسان خيرا هو عند الله محتقر

وما يهمل في قلبه هو عند الله خير

من يعلم إرادة الإلهة[3] **في السماء؟**

---

[1] – وديع بشور، **الأساطير السورية**- أساطير آرام، ص ٢٧ .

[2] – عباس القمي، **مفاتيح الجنان**، ص ١٧٥ .

[3] – الآلهة حسب الترجمة، وإنما هي القوى الربّانية الموكلة بشئون الكون والإنسان.

من يفهم خطط الآلهة في العالم السفلي

متى يعلم الناس طرق الآلهة

كيف يستطيعون الإحاطة بتغير إرادتها؟

فمن عاش بالأمس قد أصبح اليوم ميتا صريعا

لقد أظلم فجأة وانسحق سريعا

في لحظة ما تراه يغني ويلعب

لتجده بعدها في النوح يولول كالأم الثكلى

وكما تتبدّل الضياء والظلمة هكذا تتغيّر الإرادة

هذه الأشياء تذهلني ومغزاها فوق إدراكي"[1].

بعض الأساطير الوعظية تسعى إلى تثبيت مقام القوى الخيّرة في النفوس والتحذير من التعالي عليها، منها أسطورة آرخني مع الربّة النسّاجة باللاس[2] وهي من الأساطير اليونانية ننقلها بالمعنى عن الشاعر أوفيد في كتابه نسخ الكائنات، تهدف الأسطورة لبيان أنّ من يقف متحدّيا للأرباب أو ينال من مقامهم يقع عليه ما يستحقّه من العقاب، تحكي الأسطورة قصة فتاة وضيعة الأصل تدعى "آرخني" هي ابنة إدمون صبّاغ النسيج، آرخني هذه كانت بارعة في صناعة النسيج حتى أنّها اكتسبت شهرة طافت بأنحاء البلاد كلّها، وذلك بفضل مهارتها العالية في النسج، لدرجة أنّها نالت إعجاب حوريات الماء، هذه الفتاة على الرغم من أنّها تعلّمت حرفتها على أيدي الإلهة باللاس إلا إنّها نكرت ذلك، وجاهرت بتحدّى الربّة باللاس والاستعداد لمباراتها إن كانت بالفعل أفضل منها، تقول الأسطورة أنّ الربّة باللاس تنكّرت في صورة عجوز وقدمت إلى آرخني تنصحها بأن لا تقرن نفسها بإلهة من الإلهات أو تتطاول عليهن، فرفضت آرخني نصيحتها قائلة: لماذا تتهرّب الإلهة من

---

[1] - وديع بشور، **الأساطير السورية**- أساطير آرام، ص ٤٦ .

[2] - ورد في بعض الترجمات "أثينا" بدلا من "باللاس"، وهي تعادل عشتار البابلية.

مباراتي إن كانت بالفعل أفضل مني؟ عندها تبدّت العجوز في صورتها الإلهية، فركعت الحوريات والنساء الحاضرات إجلالا لها، إلا أنّ آرخني استمرت في تحديها وأصرّت على منازلتها في صناعة النسيج، فقبلت الإلهة التحدّي فشرعت كلّ منهما بصفّ النسيج فصنعت آرخني نسيجا رائعا مزدانا بالرسوم والصور، ولكنّها صوّرت فيه أعمالا شهوانية ونزوات آثمة نسبتها إلى الآلهة، وهو ما أشعر الإلهة باللاس بالإهانة فسارعت إلى تدمير نسيج آرخني، وحوّلتها إلى عنكبوت عقابا لها على تحدّي الآلهة.[1] تقول الأسطورة في نهايتها :

قالت باللاس لآرخني: فلتدومي حيّة

ولكن معلّقة في الهواء إلى الأبد

ولا تعقدي عليّ أملا بعد إذ

سيكون هذا مصير أبناءك وأحفادك من بعدك.[2]

هذه الأسطورة تجسّد شكلا من أشكال الوعظ يتمثّل في ضرورة تجنّب الحسد والابتعاد عن تحدّي الآلهة أو التعالي عليها، أي تجنّب المقارعة أو الوقوف أمام القوى الربّانية أو القوى المتّصلة بالسماء أو مخالفتها، يأتي ذلك من خلال أسلوب الأسطورة القصصي ومن خلال المحسّنات الكثيرة التي تبعث الخوف في نفوس مستمعيها للتأكيد على ضرورة التسليم والطاعة لأولياء الأمر والقوى الربّانية.

---

[1] – أوفيد، **مسخ الكائنات**، ص ١٣٣– ١٣٦ .

[2] – أوفيد، **مسخ الكائنات**، ص ١٣٦ .



(الصورة: ٨) رسم توضيحي لتحويل آرخني إلى عنكبوت حسب الأسطورة

- **أسطورة أنانا وشوكاليتودا**

نجد في الأساطير اهتماما كبيرا بدور الطبيعة وقيمة الخصب، فقد مرّت الشعوب القديمة بحقبة زمنية سعت فيها القوى الصالحة من مرشدين ومعلّمين لترسيخ مفهوم التناسل وتحسين الحياة، فقد بدأ الجنس البشري مشواره على هذه الأرض بشريعة الإباحية والتزاوج العشوائي بقصد حفظ النوع ومصارعة ظروف الأرض والحياة القاسية أمام الأعداد الهائلة من المخلوقات الحيوانية الأخرى التي تفوق البشر قوة وقدرة، وقد استمرّ هذا الحال مدة مديدة إلى أن قُدّر لآدم وحواء أن يدخلا الجنة ويحظيا هناك برعاية الملائكة الأرباب الموكّلين بالأرض، حيث نُفخَت فيهما الروح ليكونا نواة للإنسانية وليحملا راية التحوّل من شريعة التزاوج العشوائي إلى شريعة الأسرة الواحدة والنظام الاجتماعي المدني، وقد تطلّبت عملية التحوّل هذه سنوات طويلة وعملاً دؤوباً كان أبطالها قادة ومصلحين نجحوا في نهاية الأمر في

الانتصار على قوى الهمجية والعشوائية. وكانت الأساطير أداة فاعلة لتحقيق هذا الهدف، وقد تمثّلت الفكرة في الأساطير في شخصيات رمزية بمسميات مختلفة في الحضارات الأولى، فعند السومرين كانت أنانا رمز التناسل وحفظ الحياة، وعند البابلين تمثّلت هذه الشخصية بـ "عشتار" فهي عندهم الرغبة المقدّسة والعذراء في الوقت ذاته، وحينما انتقلت الحقبة إلى مرحلة الأسرة، بقيت تلك الشخصيات الرمزية ولكنّها اتخذت أدوارا مختلفة لتعزيز دورها في تطوير وتحسين الحياة، فهي خطّابة، ونسّاجة، وكاهنة، وصارت تقف مع قيم الشرف وتُعاقب منتهكها. في أسطورة سومر "**أنانا**" والبستاني[1] "**شوكاليتودا**"؛ تقول الأسطورة بأنّ فلاّحاً دؤوباً لاقى ظروفاً صعبة في حقله حتّى اهتدى لفكرة التظليل بالأشجار الضخمة لحماية مزروعاته (اسم الشجرة "**سربيتو**")، لكنّ حقله قد أبادته البلايا وفرّ هارباً لأنّ الدماء ملأت الآبار والرياح عصفت بالبلاد، ذلك لأنّه اغتصب فتاةً في حقله هي نجمة السماء أي "الربّة إنانا" فهو دنّس "العناية الربّانيّة" نفسها بفعلته، تقول الأسطورة في البداية:

"شوكاليتودا" حين يجري الماء في السواقي

وحين يحفر الآبار في أرجاء البستان

كان يتعثر بالجذور فتجرحه الرياح العاصفة

بما كانت تحمله معها

وبتراب الجبال كانت تلطم وجهه

تقتلع كلّ ما كان يزرع.

ثم بعد ذلك تسرد الأسطورة اعتداء "شوكاليتودا" على إنانا الربّة الفتاة العذراء، فتقول:

---

[1] – راجع عن هذه الأسطورة في: صامويل كريمر، **من ألواح سومر**، ص ١٤٦؛ فاضل عبد الواحد علي، **عشتار ومأساة تموز**، ص ٦١، **وسومر أسطورة وملحمة**، ص ١١٠؛ خزعل الماجديّ، **إنجيل سومر**، ص ١٥٩، **الميثولوجيا السوريّة**- أساطير آرام، ص ٧٧.

"وذات يوم بعد أن عبرت ملكة السماء وعبرت الأرض

بعد أن قطعت بلاد عيلام وبلاد شوبر

اقتربت البغي المقدسة إلى البستان من العناء وغطت في النوم

فرآها "شوكاليتودا" من حافة البستان

فضاجعها وقبّلها

وعاد إلى حافة بستانه

طلع الفجر وأشرقت الشمس

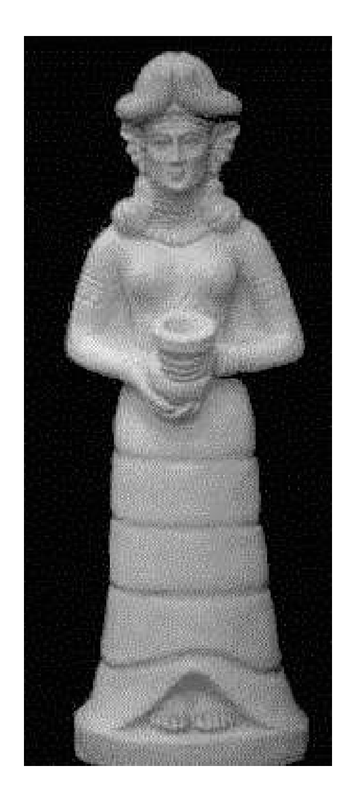
نظرت المرأة حولها جزعة

فتأمل الضرر الذي عملته المرأة من أجل عورتها

إنانا من أجل عورتها ماذا فعلت

لقد ملأت جميع آبار البلاد بالدم

كل الأحراج وبساتين البلاد أشبعتها بالدم ـ"



(الصورة: ٩) تمثال للربة أنانا

واضحٌ أنّ الأسطورة في الوقت الذي تُعلِّم تجويد الفلاحة وتحضّ على الجدّ والابتكار والعمل الدؤوب، إلاّ أنّها تربط أيضاً بين السلوك الاجتماعيّ والطبيعة، أيّ بين الرّوح والمادّة، فالعبقريّة والجدّ ما لَم يرتبطا بنسك أخلاقيّ كافٍ واحترامٍ للمقدّس فإنّ لعائن الطبيعة تترى وتتوالى، والأسطورة اختارت الربّة أنانا ونجمة السماء بطلة لفصولها، فهي الفتاة النائمة تحت ظلّ الشجرة التي تعرّضت لاغتصاب "شوكاليتودا" عليها، لكي تُوحي لكلّ أحد: أنْ لا تَغتَصب فتاةً في الطريق أو في الحقل على ذمّة شريعة الهمجية والمشاعية السالفة بعد نَسخها، فلربّما هي أنانا نفسها متلبّسة، فتُصيبك اللّعائن والبلايا، فهي أسطورة وعظيّة، تُشبه الوصايا الأخلاقيّة في تراثنا (لا تردّ أو تُحقِّرْ سائلاً فربّما هو ملَكٌ جاء يمتحنك، أو أنّها يدُ اللّه تختبرك)، وعظية لأنّها تقدم النصح بأهمية صيانة النفس الإنسانيّة عن الإباحة القديمة التي مضت المجتمعات القديمة في نبذها جيلا بعد جيل.

ج- الأساطير العلمية

الأسطورة العلمية تتحدّث عن قضايا علمية كالخلق والتكوين وأصول الأشياء، وهي من الأساطير التي تبهر العقل وتدهشه لتضمّنها معانٍ عظيمة عن خلق الكون، وخلق السماء والأرض، وخلق النبات وخلق الحيوان والإنسان، وتعتبر أسطورة التكوين البابلية من أهم أساطير الخلق، وقد دُوّنت قبل سفر التكوين في التوراة بعدة قرون، وإذا كان ثمّة تشابه كبير بين القصتين الواردتين في كلّ من الرُقُم البابلية والتوراة فإنّ ذلك مردّه إلى أنّ التوراة قد أخذت كثيرا عن الميثولوجيا البابلية والكنعانية. وتُعدّ هذه الأسطورة البابلية المعروفة بـ"إينوما إيليش" أو "عندما كان في العلاء"، من أجمل الملاحم في العالم القديم، ولقيت كثيرا من الاهتمام والدراسة من قبل علماء الميثولوجيا، وقد ظنّ بعض المؤرّخين أنّ ملحمة التكوين البابلية تتحدّث عن صراع بين الآلهة المعبودين، ينتهي إلى انتصار الإله مردوخ عليها جميعا، وهو تصوّر غير صحيح ناتج عن خطأ في تصوّر وجود تعدّد الآلهة لدى الأقدمين، نتيجة لتيهان الفكر الحديث عن فهم مراد القوم وإدراك ثقافتهم وأدبياتهم[1]، ففهم الأساطير بهذا الشكل يعدّ إساءة لهؤلاء القدماء خاصة إذا انطلق هذا الفهم من مقاصد غايتها التقليل من شأن العرب القدماء، والحطّ من فكرهم وعقيدتهم ودورهم الحضاري كمعلّمين وحاملي العقيدة والعلوم إلى الإنسانية في تلك الأزمنة البعيدة. تقول الأسطورة[2]:

حينما في العلاء لم يكن هناك سماء

وفي الأسفل لمْ يكن هناك أرض

لمْ يكن سوى آبسو أبيهم (أيْ لمْ يُوجد بعد أيّ قوّة حيّة لأنّ أبسو هو الماء، أي: أب-شو، أب الأشياء الحيّة)

---

[1] - راجع: **التوحيد**- عقيدة الأمة منذ آدم، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

[2] - راجع عن هذه الأسطورة في: فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى**، ص ٥٦، وأيضاً للنصّ تجده في خزعل الماجديّ، **إنجيل بابل**، ص ١٣، كما تجده كاملاً في **الميثولوجيا السوريّة**- أساطير آرام ص ١٩٩.

وممو، وتعامة (تيامت) التي حملت بهم جميعاً

يمزجون أمواههم معاً

قبل أنْ تظهر المراعي وتتشكّل سبخات القصب

قبل أن يظهر للوجود الآلهة الآخرون

قبل أن تمنح أسماؤهم، وترسم أقدارهم[١].

نلاحظ هنا الأسلوب الأسطوري في تصوير القضايا العلمية الكبرى بصورة رمزية معبّرة، الأسطورة تروي قصة بدء الحياة على الأرض، وهي من القضايا العلمية التي تقوم عليها نظريات ودراسات وجدل كبير خاصة في العصر الحديث، أمّا عند الأوّلين فإنّ الموضوع يخرج عن مستوى الخيال والتأمل ليصل إلى حدّ القطع واليقين، تقول الأسطورة أنّ البداية كانت بمجيء الماء البدئيّ الكامنة فيه أصل الحياة (إيا- أي حياة) مدعوما بقوى روحانية مدبّرة، عمل الماء على تبريد الأرض وهطل عليها وغمرها بشكل كامل، وتكوّنت بعدها أحماض الحياة في البحر البدئي المالح الهائج، قبل أن يظهر الماء العذب (الآبسو[٢]) والمالح (تعامة[٣]) وغيره من المياه (ممّو[٤]) أي ولا أيّ شيء من أشكال الماء كالبخار والرطوبة والندى، ففي البدء لم يكن أولئك الثلاثة

---

[١] - راجع بحث: **وعصى آدم**- الحقيقة دون قناع"، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

[٢] - الأبسو: بالعربية القديمة هو أب-الأشياء وهو إشارة إلى الماء الذي هو أصل الحياة "وجعلنا من الماء كل شيء حيّ".

[٣] - تعامت: اللفظ تكون نسبة إلى المياه التي "عمّتْ" الأرض، وأُضيف لها بادئة "ت" (ت – عمّت Tiamat)، أو (ت- يمّت Tiamat) مؤنّث يمّ أيّ مياه، فالعين تسقط لدى الغربيّين الذين ترجموا الألواح إلى لُغتهم القاصرة بحروفها.

[٤] - ممو: بمعنى منْ موأو"مِنْ ما أيّ" أي من ماء، وهو هنا كلّ شكل من الماء، كالماء البخاري، الضباب، المطر.

منفصلين، حيث المرحلة التي تتكلّم عنها الأسطورة هي مرحلة ما بعد غمر الأرض جميعاً بالبحر الأوّل.

اعتبرت الترجمات هذه القوى آلهة ومعبودات تتصارع فيما بينها، في حين هي قوى أو ملائكة تدعمها إرادة ربّانية روحانية تقف وراء ذلك الخلق من مرحلة إلى أخرى، وهي التي أوعزت— حسب الأسطورة- لقوى الشمس وأشعّتها فوق البنفسجيّة أنْ تُفكّك الماء إلى هيدروجين وأكسجين، وهذا قبل وجود يابسة، ليقوم الأكسجين بالارتفاع بدوره إلى مسافة معيّنة ليصنع هواء الجوّ بدءاً من طبقة الأوزون الأكسجين السماويّ الواقي (آن- شار)، وهي تعني سرّ السماء[1]، نلاحظ أسلوب الأسطورة الذي يجسّد القوى في شخصيات تأتي وتعيش وتتنازع وتتولّد، إشارة لمعاني علمية تريد الأسطورة بيانها، فتكوّن طبقة الأوزون تمّ بقهر الماء وتفكّكه وهي عملية سبقت تكّون اليابسة، ولو كانت اليابسة موجودة لما أحاط الأوزون بالأرض، ولولا تكوّن الأوزون وإحاطته بالأرض من جميع الجهات لما تكوّنت مادة الأرض ولما تهيأت الأرض للحياة والسكن، تلك الفكرة عبّرت عنها الأسطورة بأنّ القوى صنعت بعد ذلك مادّة الأرض (كي- شار) أي سرّ الأرض[2] تقول الأسطورة:

وقبل أن يكبر لخمو ولخامو[3] ويشبا عن الطوق

جاء إلى الوجود "إنشار" و"كيشار" وفاقاهما قامة وطولا

عاشا الأيام المديدة، يضيفانها للسنين الطويلة

تسرد الأسطورة بعد ذلك الخطوات اللاحقة للخلق على يد القوى المدبّرة مردوخ، الشخصية التي برز دورها في الأسطورة للقيام بعملية التحكّم في أدوار القوى الهائجة والسيطرة عليها ثم التحرّك باتجاه تقدير الرياح والمطر وتشكّل البقع الأرضية

---

(1) – آن بالسريانية العربية تعني سماء، والسين تقلب شينا.

(2) – كي بالسريانية القديمة تعني الأرض.

3- لخمو ولخامو: أو لحمو ولحامو وكلاهما دلالة لذات المعنى إلا أنّ الخمُو أخفّ من الخامُو، فالأوّل هو ما اسودّ وبرد وصلب، والثاني ما زال حميماً وهو إشارة إلى حمم البراكين وسيولها المتلوّية.

والجبال، ثمّ توفير الماء العذب الذي صعّدته الشمس بالتبخير ثم بالإمطار، إذ كلّ ذلك هيئ لطين الأرض أن يكون محضنا لتخليق الكائنات. تقول الأسطورة:

وخلق منها مردوخ - -

خلق منها الغيوم وحملها بالمطر والزمهرير

دفع الرياح وأنزل المطر، وخلق من لعابها أيضا ضبابا

ثم عمد إلى رأسها فصنع منه تلالا، وفجّر في أعماقها مياهاً

فاندفع من عينيها نهرا دجلة والفرات -

وعند ثدييها رفع الجبال السامقة، وفجّر منها عيونا، وأحيا آباراً

وكانت الجبال البركانية واليابسة تخرج تباعاً

أزعجوا بحركتهم تيامة، نعم لقد هزّوا جوف تيامة



(الصورة: ١٠) الإله مردوخ

سياق الأسطورة يغلب عليه الصراع بين شخصيات الأسطورة وكأنّهم يتنازعون المقام والسيطرة، ولكنه الأسلوب الأسطوري الذي يحبك الحدث ويعرضه في صياغة قصصية مشوّقة، فالقوة الربّانية "مردوخ" أي القوة المدبّرة تقهر الأثر الذي أثّرته "تيامت" وهو الماء الغمر الذي برّد الأرض، ويسيطر "مردوخ" على المياه بتقديرها في مساراتها، ثم بعد مدّة يباشر إلى "ذبح آبسو" وإسالة دمه وهو تعبير لإفاضة مائه أنهاراً وعروقاً وأخاديد، تقول الأسطورة في بعض مقاطعها :

نام آبسو وراح في سباته بلا حراك

تاركاً أمينه ممّو بلا حول

وهنا قام "أيا" بحلّ نطاق آبسو ونضا عنه تاجه

وجلا عنه عظمته وأسبغها على نفسه

وبذلك أخضعه ثمّ عمد إلى ذبّحه

وسجن ممو وأغلق دونه الأبواب

وفوق "آبسو" أقام "أيا" مسكنه

وعاد إلى ممو فخرم أنفه بحبل يُمسك به



(الصورة: ١١) صورة تعامت

وتستمر الأسطورة في شرح كيف وضِعَت نواميس الأرض وقوانينها الطبيعية، وتبيّن دور الرياح القاصفة لإلجام المياه وشق اليابسات، وإرساء الجبال، وتصوّر تحالف قوى الطبيعة كلّها من حرارة وهواء ورياح وأعاصير وزوابع تسميها الأسطورة (الرياح الشيطانية) وإنبات يابسات البراكين، كل ذلك تسخّره القوى الربّانية لتمنع تقدّم البحر البدئي"تيامت" وتحدّ من هيجانه لإنهاء حقبته (حقبة المايا)، وتضيييعها بين الخلجان عبر (قطع شرايين دمائها) وفي أغوار المحيطات وبتبخير معظمه لصنع الغلاف الغازي، تقول الأسطورة:

شقّها نصفين فانفتحت كما الصدفة،

رفع نصفها الأوّل وشكّل منه السماء سقفاً

أحد النواميس التي نشأت عنها تلك الحركة هو القمر، ، حيث تشرح الأسطورة كيف تكوّن القمر ضمن تلك المنظومة بعد تشكّل الحزام الأرضي وتيبّس الأرض، فقد عملت القوى على سجن القمر وحبسه ليقدّر في منازل استكمالا لإقرار النظام على الأرض، وتبيّن الأسطورة آلية عمله كمؤشّر لمعرفة الزمن بسبب طبيعته المتغيّرة:

ثمّ خلق القمر (نانا) فسطع بنوره

وأوكله بالليل وجعله حلية له وزينة ولتوقيت الأيام

وقال له: اطلع كل شهر بتاجك دون انقطاع

وسيكون لك قرنان عندما تشرق أول الشهر يعينان ستة أيام

وفي اليوم السابع يكتمل تاجك

وفي منتصف الشهر ستغدو بدرا في كبد السماء

وعندما تصل الشمس (شمش) قاعدة السماء

انقص من ضوئك التام وابدأ بانقاص تاجك

وفي فترة اختفائك في درب مقارب لدرب الشمس

وفي التاسع والعشرين ستقف في مقابل الشمس مرة أخرى

لقد عيّنت لك إشارة فاتبع دربها وتضاءل

وفي يوم التعتيم اقترب من مسار الشمس

لتستطيع من جديد في اليوم الثلاثين الدخول في اقتران معه[١].

هل بالإمكان أن يُقال على هذه الأسطورة أنّها خرافات، كما قد يتوهم البعض في يومنا هذا، إنّ أي أحد وإن كان لديه إحاطة بسيطة بعلوم الطبيعة لا يسعه إلا أن يقف مشدوها أمام هذه العقلية العلمية التي تدلّ على مستويات راقية في العلوم الفلكية، ودراية بكروية الأرض وعلاقة القمر بالشمس في حركته ونورانيته وسائر منازله، وعلى الرغم من أنّ تلك النصوص يرجع عمرها إلى أكثر من أربعة آلاف عام، إلا أنّها تحدّثت عن قضايا علمية عظيمة ابتدأت بوصف مفصّل لعملية بدء الخلق على هذا الكوكب بواسطة المياه وبيّنته مرحلة مرحلة، ثم وصفت وصفا دقيقا لآلية عمل القمر الأرضي وكيف أنّه يستمد ضوئه من الشمس ويتعلّق نوره بدرجات دورانه حولها، لقد كانت هذه المعلومات العلمية معروفة عند القدماء العرب، لقد فاق هؤلاء بهذا العلم علماء العصر الإسلامي رغم علو شأنهم ورفعة علمهم، وتقدّموا على أوروبا بمراحل وهي التي عاشت في ظلمات الجهل كالاعتقاد بأن القمر كائن ضوئي مشعّ حتى زمن جاليليو الذي خالفهم وقال الحقيقة فنال جزاءه، ولقد أثبتت اكتشافات العلوم التطبيقية عاما بعد عام صحة هذه المعلومات التي قدمها التراث العربي الموغل في القدم في إطار إيماني عقائدي، ما جعله تراثا يتميّز إلى جانب سعة علمه وتناوله للموضوعات المهمة والغامضة كنشأة الكون والحياة والإنسان، يتميّز أيضا بقدرته على خلق نوع من الائتلاف والانسجام بين العلم والدين، من خلال دعوته إلى تكريس مبادئ الإيمان بالله والتسليم للقوى الربّانية والأرباب الموكلة بالخلق وربط كل ذلك بالتمسّك بالقيم والمثل ومبادئ الحضارة والاستقرار، هذه الحالة المثالية التي تفتقدها اليوم حضارات الشعوب المعاصرة.

فليست الصورة السابقة عبثية خيالة، وليس كما يقول البعض أنّ الفكر البابلي المتأمل اعتقد بأنّ العالم نشأ من خليط مادة شيطانية سحرية ومادة إلهية إبداعية،

---

[١] - خزعل الماجدي، **إنجيل بابل**، ص ٣٠.

بل هو الأسلوب الأسطوري القديم، الذي صوّر لنا الأمر أشبه ما يكون بحرب مستعرة، أبطالها القوى الربّانية، للقضاء على قوى العماء البدئي، هو صراع المخلّق مع اللامخلّق وإحلال النظام والتقدير محلّ اللاشيء، وبهذا بدأ العالم عهدا جديدا واضح المعنى والهدف والغاية.

وعلى هذه الشاكلة هناك أساطير أخرى رائعة في التكوين كنص سيبار الذي عُثِر عليه في خرائب مدينة سيبار ويعود تاريخه إلى الدولة البابلية الجديدة في القرن السادس قبل الميلاد، ويحكي عن قصة الخلق والتكوين وخلق سائر الكائنات وخلق الإنسان، وهناك أيضا النصوص التي تتحدث عن قصة خلق آدم وحواء كأول إنسان عاقل وجد على المعمورة في الحضارة الأوغاريتية والمصرية وكلّها ترجعنا إلى البدايات الأولى حين لم يكن الإنسان شيئا مذكورا، وتقدّم لنا تفسيرات في نشوء الكون كما أنّها تعبّر بحق عن علم وفكر وفلسفة الشعوب القديمة.

د - أساطير الأبطال

تدور أساطير الأبطال حول شخصيات صالحة تركت بصمات بارزة في التاريخ القديم كالأنبياء والملوك، ويمكننا من خلال هذه الأساطير التعرّف على مفهوم البطولة عند الشعوب القديمة وطبيعتها وارتباطها بالعالم الفوقي والقوة الربّانية، إذ البطولة تؤثّر في الحضارة بشكل كبير بل إنّها في القديم صانعة الحضارة والمدافعة عن القضايا الإنسانية ولها اليد الطولى في تكريس المبادئ السامية. من أمثلة أساطير الأبطال أسطورة بطل الطوفان "أتونابشتم" نبي الله نوح (ع)، ومنها أسطورة جلجامش ملك أوروك السومري في ملحمته الطويلة ومغامراته مع صديقه أنكيدو الذي يقاسم جلجامش البطولة ورحلتهما ضد المخاطر ثم بطولات جلجامش بحثا عن أرض الخلود (جنة آدم[1]).

ومنها أساطير الملك العادل البابلي حمورابي، الذي يقول عنه ويل ديورانت في كتابه "قصة الحضارة": "نستطيع أن نتخيّله شابا يفيض حماسة وعبقرية، عاصفة

---

[1] - راجع: **جنّة آدم- تحت أقدام السراة**"، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

هوجاء في الحرب، يقلّم أظافر الفتن، ويقطع أوصال الأعداء .. نشر لواء السلام .. وأقام منار الأمن والنظام بفضل سفر قوانينه التاريخي العظيم"[1]، وقد كشفت النقوش الأثرية التي عثر عليها في مدينة سوس عام ١٩٠٢ وجه الملك حمورابي وهو يتلقى القوانين من مردوخ الرب الموكل بالإنسان عند البابليين، وقد أظهرت أساطير الملك حمورابي مقام هذا الرجل العادل الحكيم وصلته بالسماء من خلال مهماته التي أدّاها أثناء ملكه والتي تلتقي في معظمها مع مهام الأنبياء(ع)، واسم حامو- رابي يعني محامي الربّ، كما نقول في يومنا حامي الدين، أيّ الحارس من قبل الله على حدوده، وشريعته مبدؤها (النفس بالنفس) وقد سبقتْ موسى بأربعة قرون وقبل صياغة التوراة بخمسة عشر قرنا، وهي عين الشريعة المكتوبة في كتاب موسى، والتي ضمّنتها مدوّنات التوراة الموجودة، وأشار القرآن إلى صحّتها وأنّها من تعاليم السماء لا بنحو واضعٍ بشري: (**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**)(المائدة:٤٥)، فشريعته شريعة أنبياء، وتعدّ شاهدا على حضور التعليم الربّانيّ في حضارات الأرض العربيّة، ففي شريعة حمورابي نقرأ:

وما أن عهد آنو الأعلى ملك الأنوناكي

وربّ السماء والأرض الذي يقرر مصير العالم

لما آنو عهد حكم بني الإنسان كلهم إلى مردوك .

في ذلك الوقت ناداني آنو وبل . أنا حمورابي الأمير الأعلى

عابد الآلهة لكي أنشر العدالة في العالم

[1] - ويل ديورانت، **قصة الحضارة**، ج٢، ص ١٩٠.



(الصورة: ١٢) الملك حامورابي

وتختتم الشريعة بالعبارات التالية:

إنّ الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي

والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة.

أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها.

في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكاد،

وبحكمتي قيدتهم، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء،

وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة. [١].

ومنها أسطورة سرجون الأكادي قبل الملك حمورابي الذي يُعدّ باني أول إمبراطورية عربية وحّدت المنطقة الشمالية للجزيرة العربية، "فإنّه جعل من هيبته وقوة حكمه أداة حقيقية تشارك عمليا في رفع الحيف عن المظلومين، وفي أخذ الحقّ من الظالمين"[٢] تقول أسطورة سرجون:

---

[١] - أحمد داود، **تاريخ سوريا الحضاري** - تصحيح وتحرير، ص ٤٠٦.

[٢] - أحمد داود، **تاريخ سوريا الحضاري** - تصحيح وتحرير، ص ٣٤٢.

حكمت ذوي الرؤوس السود وملكت عليهم[١]

ببلطات البرونز قهرت الجبال العظيمة تسلّقت السلاسل العليا

وعبرت السلاسل الواطئة جبت بلدان البحر ثلاث مرات قبضت على دلمون بيدي ولي دير العظيمة صعدت وأي ملك يأت من بعدي فليحكم ذوي الرؤوس السود ويملك عليهم ليقهر الجبال العظيمة بالبلطات ـ"[٢].

من الأساطير البطولية المصرية، أسطورة "أوزيريس" الذي يعدّ عند عرب وادي النيل بطلا ثقافيا علّمهم فنون الزراعة والأشغال المعدنية[٣]، فحضارة وادي النيل بدأت بإدريس مع إيزيس وأوزيريس، وقد كان لهؤلاء الثلاثة فعلاً فضلٌ على العالَم بأسره بنشرهم العلوم الإنسانيّة، فهم من أسّس حضارةً في مصر في الألف الخامس قبل الميلاد، علّموا الناس الزراعة هناك والملاحة والكتابة والحساب والفلك والمهن الصناعيّة، وعملوا على نبْذ الهمجيّة وتأسيس نظام الأسرة والمدنية الاجتماعية، زوجة أوزيريس هي الربّة إيزيس شاركته حكم مصر وعاونته في نشاطاته الخيّرة، ويُعدّ "أوزيريس" كأب ربّانيّ لشعبِ مصرِ النيل وهو بمثابة آدم الأب الأوّل المعلّم للإنسانيّة، وتُسجِّل الأُسطورة في جانب منها وصية الأبِ المُعلِّم الأخيرة لأبنائه "حورس"، بإشعال الحرب بلا هوادة مع الشيطان المسمّى عندهم "سيت"، فحين يسأل الأبُ ابنَه (أبناءه): "ما أنبلَ ما تنوون فعله مع الشيطان؟ فيقولون: نحاربه بضراوة وننتقم منه جزاءً لما فعل في أبوينا"، وقد أصبح أوزيريس سيّد الحاكمين في مملكة الموتى يتولّى حساب الموتى حيث يجازي الأخيار ويعاقب الأشرار، فقد كانت العقيدة المصرية القديمة تؤمن بالبعث والحساب، وكان للعقائد الجنائزية والاحتفاء بالموتى مكانة كبيرة عندهم، تسرد الأسطورة مشهد ما بعد موت "أوزيريس" ورحلته إلى دار الأمن ومقرّ الأرواح وعالَم الموتى حيث يُقيم مُنتظراً ذرّيته وشعبه لحسابهم، ونقرأ فيها توسّلا للسيد أوزيريس في يوم الحساب:

---

[١] – ذوي الرؤوس السود إشارة إلى الأقوام المتأنسنة المتحضرة سكان المنطقة العربية.

[٢] – أحمد داود، **تاريخ سوريا الحضاري** – تصحيح وتحرير، ص ٣٥٠.

[٣] – صوئيل هنري هووك، **منعطف المخياة البشرية**، ص ٥٥.

يا أوزيريس يا سيد الأمنت العظيم (أي الدار الآخرة) في العالم الآخر

اكتب لي دخول دار الأموات في عظمة وجلال كهذا الغني

ولا تحرمني شجو الموسيقى وندب النادبين كما حرمت هذا الفقير[1]

خاتمة

يتبيّن لنا أنّ الأساطير رغم اختلاف مواقعها الجغرافية إلا أنّها تشترك في كونها تتكوّن من ظاهر يغلب عليه استخدام المحسّنات الشعرية والصور البديعية والرموز والكنايات، ولكنه يختزن في سطوره معاني عميقة ومضامين راقية، وقد تناولت الأساطير في كلّ الحضارات القديمة ذات الموضوعات الهامة والكبيرة عن نشأة الكون وخلق الإنسان الأول وبداية تكليفه وحياته الأولى والأخرى، هذه الوحدة في الشكل والمضمون تدل على وحدة مصدرها، فالشعوب في تلك المرحلة التاريخية كانت تنزح وتنتشر وتعمّر الأراضي حاملة معها عقيدتها وفكرها وأدواتها وعلومها.

وبالنظر إلى الدلالات والغايات التي تكمن في الأساطير أيضا نستدل على أنّها كانت أداة لنشر الثقافة والعلوم والمكتشفات التي ساعدت في بناء حضارة الإنسان ورقيه في سلّم التطوّر في مختلف المجالات، وهي ليست كالخرافات، بل هي مادة تاريخية تحوي معارف الإنسان الأول وعلومه وعقائده، غرضها العامّ هو الحفاظ على روح التديّن والخير والارتباط بقوى السماء وتوجيه الإنسان نحو القيم والفضائل ودفعه نحو تحقيق دوره على هذه الأرض، ونقل العلوم الصحيحة له.

---

[1] - سليمان مظهر، **قصة الديانات**، ص ٤٤.

الفصل الثاني

الأسطورة مصدر تاريخي

تمهيد

بعد العرض السابق لمفهوم الأسطورة وطبيعتها ونشأتها وأنواعها، يبدأ هذا الفصل في بيان العلاقة بين الأسطورة والتاريخ، بالنظر إلى طبيعة وإمكانيات الإنسان منتج الأسطورة، فهل كتب الإنسان الأوّل بأسطورته تاريخا، وهل كان شاهدا على مراحل ووقائع دوّنها وحفظها بأمانة تستحقّ منّا اليوم عناء البحث والتحليل لعلّنا نعثر بين طيّاتها علما أو ملامح لحقيقة؟ ثم يسعى الفصل لمحاولة الإجابة على السؤال الرئيسي وهو هل يمكن اعتبار الأسطورة مصدرا معتمدا من مصادر التاريخ؟ مع بحث الأسباب والأدلة الداعمة في حالتي الإجابة بالسلب أو الإيجاب، منطلقا من استعراض نماذج من مواد الأساطير ومقارنتها بالكتب السماوية التي لا نختلف في اعتمادها مصادر رئيسية لوقائع التاريخ.

بالإضافة إلى ذلك يبحث الفصل موضوع الأسطورة في القرآن الكريم بالنظر إلى ارتباطها التاريخي بحدث بعثة الرسول الأكرم (ص)، حيث يناقش دلالات كلمة الأساطير من القرآن الكريم والمعاني والأبعاد التي يمكن أن نستخلصها من الآيات الشريفة، متّكئين على قاعدة عرض الآراء التي حصّلناها سابقا على كتاب الله فإن وجدناها موافقة لكتاب الله أخذنا بها وإن كانت مخالفة له تركناها وضربنا بها عرض الحائط.

أولاً - الأسطورة والتاريخ

على الرغم من كثرة الشكوك التي أثيرت حول القيمة التاريخية للأساطير، إلا أنّ كثيرا من الباحثين عدّ الأسطورة مصدرا من مصادر التاريخ، وتمكّن هؤلاء من التعامل مع المادة الواردة في الأساطير واستخلاص القيمة التاريخية منها، يقول الدكتور وديع

بشور: "وعلى كلّ حال ستبقى الأسطورة أحد مصادر الاستدلال في البحث التاريخي وإن لم تكن هي التاريخ"[1]. ولعلّ سبب هذه الشكوك يرجع بالدرجة الأولى إلى الأدوار التي أوكلتها الأساطير إلى القوى الربّانية وإلى اعتمادها على الخيال والرمز ونسبة الأوصاف غير الواقعية للعناصر والشخصيات[2]، وساعد على إصدار مثل هذا الحكم عجز علماء الميثولوجيا عن فهم أو تكوين الصورة الكاملة التي أراد الأوّلون تسجيلها والأخذ بالاعتبار عاملي الزمان والمكان. فمع كل ما تحمله الأسطورة من النزعات الخيالية إلا أنّ ذلك لا يعني أن ليس للأسطورة قيمة تاريخية، فهناك صلة كبيرة بين الأسطورة والتاريخ تحتّم علينا ضرورة الاستفادة من المادة الأسطورية والاعتماد عليها كمصدر فريد من مصادر التاريخ الإنساني الواحد المتسلسل في فصوله ومراحله، فالأسطورة هي أهم وصلات الاتصال بيننا وبين الإنسان الأول لكونها أحد الوسائل التي ابتكرها للتعبير عن فكره وعن أنشطته المختلفة وعلمه وعقيدته وإيمانه وميوله.

أما ما ذكره البعض من تقسيم العهد الإنساني إلى عهد أسطوري وعهد تاريخي فما هو إلا محاولة لاعتبار الأسطورة فصلاً خارجاً عن التاريخ الإنساني الحقيقي، من خلال اتهامها بأنّها نتاج صنف إنساني غير مكتمل العقل بخلاف التاريخ الذي هو سجل للإنسان العاقل المنتج حيث جعلوا الكتابة الحدّ الفاصل بين العهدين، مع أنّ الأسطورة ما هي إلا طريقة لكتابة وتوثيق الأحداث التي مرّ بها الإنسان في مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني، وقد استخدمت الكتابة في شكلها البدئي كالتصويرية أو المقطعية أو المسمارية[3]، فالتاريخ أكثر شمولية من الأسطورة وهي ليست إلا جزءا منه. يعرّف ابن خلدون فن التاريخ في مقولته الشهيرة بأنّه: "من الفنون التي تتداولها

---

[1] - وديع بشور، **الميثولوجيا السورية** - أساطير آرام، ص ١٤.

[2] - راجع بحث: **التوحيد**- عقيدة الأمة منذ آدم، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

[3] - الكتابة التصويرية هي شكل من أشكال الكتابة البدائية التي تصوّر الفكرة لا الصوت يتم فيها نقش الصور والرسومات للدلالة على المعنى، والكتابة المقطعية هي الكتابة التي تضع رموزا وعلامات لمقاطع كثيرة يجري الاتفاق على معانيها فيما بين واضعيها، وتعتبران المرحلتان الأوليان من مراحل اختراع الكتابة ما قبل الأبجدية، أما الكتابة المسمارية فهي طريقة للكتابة عن طريق النقش على ألواح الطين باستخدام مسمار خاص استخدم في كتابة اللغة الأكدية والبابلية.

الأمم والأجيال وتشدّ إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويساوى في فهمه العلماء والجهّال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى تنمو فيها الأقوال وتُضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال، .. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق..."[1]

، ولا تخرج الأساطير عن إطار هذا التعريف، فالتاريخ المكتوب هو انعكاس للفكر وتسجيل للأحداث تماما كما الأسطورة التي عبّرت عن الفكر والحدث.

يذكر الدكتور محمد خليفة حسن في كتابه "الأسطورة والتاريخ في التراث الشعبي القديم" بأنّ التشابه بين وظيفة وطبيعة التاريخ والأسطورة أدّى إلى خلق علاقة ثنائية بين الطرفين فبدا الأمر وكأنّهما وجهان لعملة واحدة، وهو يرجع التشابه إلى عدة نواح؛ من الناحية الوظيفية فإنّ كلاّ من الأسطورة والتاريخ يهتم بتسجيل النشاط الإنساني وتدوين النشاط الإلهي، فالأساطير القديمة ما هي إلا قصص عن الآلهة (حسب تعبير الكاتب) والإنسان، والتاريخ أيضا ما هو إلا حكاية عن الإنسان تضمّنت في بعض فصولها حديثا عن التاريخ الإلهي أو التاريخ المقدّس الذي عنى بقصص الوحي والأنبياء والقدّيسين، ومن الناحية الطبيعية فإنّ طبيعة كلّ من التاريخ والأسطورة نستمده من ذلك القطع بربط التاريخ بالواقع والأسطورة بالخيال، والحقيقة أنّ التاريخ ليس كله وصفا واقعيا للحقيقة أو للحادثة، كما أنّ الأسطورة ليست كلها خيالا، ولكن هناك علاقة ثنائية بين الأسطورة والتاريخ تسمح ببعض الخيال في الوصف التاريخي، كما تسمح ببعض الواقعية في الوصف الأسطوري[2].

إنّ تقسيم التاريخ إلى عهدين أسطوري وتاريخي يرجع إلى نظرية أسّسها بعض علماء الغرب وكرّرها للأسف بعض المثقّفين والباحثين العرب من خلفهم، النظرية تقوم أساساً على التفسير المادي للتاريخ البشري وعلى اعتبار الأسطورة والخرافة شيئا واحدا، فقد صنّفت هذه النظرية البشر الأوائل على أنّهم مرحلة البدايات الأولى

---

[1] – ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٢.

[2] – محمد خليفة حسن، **الأسطورة والتاريخ في التراث الشعبي**، ص ٢٧.

للإنسان، الذي مرّ عبر ملايين السنين من طور الهمجية والتفكير البدائي إلى أن وصل إلى العقلانية والنضوج الفكري، وقد صاحب هذه المسيرة تعلّق الإنسان بعبادة المظاهر الطبيعية المختلفة واختلاق الآلهة، واعتبرت النظرية أنّ العقل البشري البسيط في إمكانياته وقابليته للنمو والتطوّر بدأ منطلقا من طبيعته هذه بطرح تساؤلات عمّا يدور حوله من أحوال ومظاهر طبيعية تخرج عن سيطرته، واستمر في محاولات دؤوبة لتقديم إجابات عليها، فانتهى إلى وضع تصوّر لتفسير ما يدور حوله باختراع قوى الأرباب والآلهة ونسبتها إلى القوى الطبيعية مرة وإلى شخصيات خيالية مرة أخرى، ونسب إليهم كلّ أفعال الخير والشر الذي يمسّه في عالمه الفسيح، وبرزت الكهنة كروّاد لمثل هذا التوجّه حيث صبغوا تلك الأفكار بصبغة الدين والقداسة وأخذوا على عاتقهم ترويجها ونشرها وبذلك انتشر الضلال وعمّت الخرافات عند الأوائل، وراجت الأساطير في الشرق والغرب. إلا أنّ الإنسان نفسه وفي مشوار تطوّره العقلي كلما اكتشف حقيقة علمية أسقط في المقابل مفهومه للآلهة وأعاد نظرته المتوازنة العلمية للمظاهر الطبيعية، فما عادت الشمس والنجوم والرياح كما هي عند الأوّلين تمثّل القوى الخفيّة التي بها يتعلّق مصير البشر والتي ينبغي عبادتها وتقديم القرابين لها لكي تستمر بالقيام بدورها ولا تنفث جامّ غضبها في يوم من الأيام. هذه النظرية لم تعقد أي رباط بين تطوّر الإنسان وبين التدخّل الإلهي والوحي الربّاني، إنّما نسبت كل تحسّن وتطوّر واكتشاف فقط إلى العقل الذي تعتبره الإله الأوحد القادر، وهو الذي أحسن الإنسان استخدامه عصرا بعد عصر إلى أن استطاع أن يخرجه من طور الأسطورة والخرافة إلى طور الحقائق والمسلمات، وأن يصل إلى المستوى الذي نراه اليوم، عقلا منتجا مبتكرا مبدعا خلاّقاً.

ولكن هل أنّ الإنسان تطوّر فعلا من الهمجية إلى الإنسانية دون تدخّل ربّاني؟ وهل بالإمكان للإنسان بالفعل أن يصل إلى المستوى الذي وصل إليه بعقله فقط ومن غير أن تمتدّ إليه يدٌ سماوية ترفعه من مستوى الهمجية التي لا تفترق عن الحيوانية بشيء كثير إلى مستوى الإنسانية؟ الحقيقة كما يقصّها علينا الأوّلون في أساطيرهم ويؤكّد عليها القرآن، أنّ البشرية نعم بدأت بالهمج السابقين الذين ظلّوا آلاف السنين يسكنون الغابات والكهوف ويسفكون دماء بعضهم ويُفسدون دونما وعي بل بدافع

غريـزتهم، وكمـا يصـفهم تراثنـا السـومريّ في (أسـطورة "أشـنان" والنعجـة): (**البشـر الأوائل لمْ يعرفوا أكل الخبز، ولم يعرفوا ارتداء الملابس بعد، وكانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم، ومن القنوات يشربون الماء**)[1]، تماماً كما وصف القرآن حال البشر قبل جعل آدم خليفة بأنّهم سفكة دماء بقوله تعالى: (**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**)(البقرة:٣٠)، إلى أن قرّرت الملائكة أو القوى الربانية التدخّل لوقف سفك الدماء عبر تكليف أحد هؤلاء (الهمج) بمهمة خاصة وهي أمانة الاستخلاف وعمارة الأرض، حينها تمّت تسوية أحدهم (وهو آدم) فتحوّل من بشر همج بعقل غريزي إلى إنسان بعقل إنساني مبدع خلّاق، هذه التسوية حصلت بدخول القوى الربّانية على نظامه ومدوّناته الجينيّة (الأمشاج) ثُمّ نفخ الروح فيه[2]، إذن الإنسان مرّ بطفرة نقلته من حالة الهمجية إلى حالة العقلانية فوعى ذاته والعوالم التي تُحيط به ووعى ربّه، وأُعطي منذئذ هبة ربوبيّة عظيمة هي الحرّية والتصرّف والقدرة على تدبير ما حوله.

هذه الحقيقة يؤكدها القرآن الكريم أيضاً في قوله في سورة "الإنسان" (**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً**)(الإنسان:١)، والدهر الذي لم يكن فيه الإنسان شيئًا مذكورا هو مرحلة الهمج غير الواعي، وهذا ما وصفته بدقّة أسطورة: "عندما رسم الآلهة المدينة" السومريّة قبل أكثر من ٤٠٠٠ عام، وقد مرّت علينا في الفصل الأول، التي تحدّثت عن وجودٍ بشريٍ غير مُعبأ به لدى الملائكة قبل إيجاد الخليفة- الإنسان، ثم بعد نفخ الروح فيه تذكر سورة الإنسان: (**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**)(الإنسان:٢) ومنها اكتسب الإنسان العقل وقابلية الرشد ومنظومة القيم وابتدأ يُعلِّم الحضارة واللّغة بهذه الروح الربّانية التي هي الوديعة التي حملها الإنسان المُستحدَث منْ ركام السلالة البشريّة المتحدّرة من البشر الأوائل المخلوقة من الطين. وكان من الطبيعي والمنطقي أن يبدأ الإنسان في التعبير عن أفكاره ومعتقداته وأسلوب حياته ومكتشفاته ومراحل تطوّره،

---

[1] - عبد الوهاب حميد رشيد، **حضارة وادي الرافدين**، ص١٦٠.

[2] - راجع بحث: **وعصى آدم**- الحقيقة دون قناع"، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

فكيف عبّر الأوائل عن تلك الأفكار والمعتقدات والمعارف؟ لقد اختار الإنسان الأول أن يكتب فكره على شكل قصصي شعري يعتمد على المحسنات الأدبية وتحريك العواطف، فصوّر حركة المياه القوية في جوف الأرض وهي تبحث عن منفذ للخروج إلى السطح وكأنها آلام الولادة تتصارع في بطن شخصية سموها "تيامت" يتمخض عنها خلق جديد وأولاد يشكّلون البدايات الأولى لنشوء الكون، والبراكين التي تقذف اللهب والحمم والدخان ثمّ ما تلبث أن تسيل كالأنهار وتكتسح ما يقف في طريقها، صوّرتها الأساطير العربية القديمة في هيئة وحش خرافي أو ثعبان ضخم ينفث النار والدخان من رأسه، وصوّرت تجاذب القوى الطبيعية في نشأة الخلق وعملية تهيئة الأرض للحياة وكأنّها معركة حامية الوطيس بين ربّ التدبير والخير وبين قوى مضادّة تمثّلت في المياه التي انتهى أمرها بإخماد أنفاسها وحبسها بعيداً تحت الجبال، كلّ ذلك كتبوه بأسلوب شاعري وعيّنوا مناسبات خاصة لترتيله، وقاموا بعمليات مسرحية هدفها تمثيل وتأكيد هذه الحقائق وإن غلبت عليها صورة الطقوس الدينية، فكل هذه أساليب ساعدت كثيراً على سرعة حفظها وتناقلها بين العامّة، **فالأسطورة إذن هي نتاج إنساني عقلي وأسلوب لصياغة الحقيقة ووسيلة لتثبيتها في النفوس من أجل أن تشكّل الدين والعقيدة لأتباعها، وهي أداة تثقيف امتزجت فيه الفكرة بالعاطفة ما جعلها حيّة فاعلة في نفوس الناس.**

فإذا كانت اللغة التي صيغت فيها الأسطورة لغة خيالية إلا أنّ الأحداث والوقائع التي تسردها ليست خيالية، فلم يكن بالإمكان للإنسان في ذلك الزمان استخدام لغة ميكانيكية علمية وألفاظاً منمّقة وأرقاماً وإحصاءات لكي نقول أنّها ليست خرافات، وإنّ وزن كلام الأولين بمعيار العلمية حسب مفهومنا الحديث أفقد كلامهم قيمته ومقاصده الأصلية، وضيّع من فرص الانتفاع منه، فالأوائل أصلا لم يكتبوا أساطيرهم لزماننا نحن، بل كانت الأساطير في الأساس لغة للعبادة ضمّنوها الحقائق الدينية التي تعلّموها من جهات ربّانية، هدفوا من خلالها النفوذ إلى داخل الوجدان الإنساني وخلق التوازن بين النفس والعقل والروح وإلى تقوية العقائد في النفوس لتستقيم وتتنزه وتنتج ضمن النظام الإداري والاجتماعي والاقتصادي الذي أرادوا تشييده. ولغة العبادة كما نعرف في جميع الديانات قائمة أساساً على الرموز والخيالات لغرض

تحريك العواطف وتوجيهها، ففي المسيحية مثلا نقرأ: "**فيا أيها السيِّد الرب يسوع، يا كنز الصالحات، هبني توبةً كاملة، وقلباً يهيم في تطلبكَ، امنحني نعمتكَ وجدِّدْ فيَّ مثال صورتكَ، ولا تهملني وإن تركتكَ بل هلمَّ لتطلبني، وأعدني إلى مرعاك، وأحصني مع خراف رعيّتك المختارة، وأعلني معها بكلاِ أسراركَ الإلهية، بشفاعات الكلّية الطهارة والدتكَ وجميعِ قديسيكَ، آمين**"[1] وفي الإسلام كذلك تستخدم اللغة الرمزية للتعبير عن مفاهيم عرفانية راقية، مثلا في دعاء الإمام علي بن الحسين (ع) في مناجاة المفتقرين: "**وَها أنَا بِبابِ كَرَمِكَ واقِفٌ، وَلِنَفَحاتِ بِرِّكَ مُتَعَرِّضٌ، وَبِحَبْلِكَ الشَّديدِ مُعْتَصِمٌ، وَبِعُرْوَتِكَ الْوُثْقى مُتَمَسِّكٌ**"[2] كيف يمكن أن نفهم جملة "أعدني إلى مرعاك، وأحصني مع خراف رعيتك المختارة"، وكيف يمكن أن نفسّر الدعاء في التراث الإسلامي الذي لا يخرج عن هذا الإطار، سوى أن نقول أنّها لغة العبادة الشاعرية الخيالية الأقدر على توجيه العلاقة بين العبد وخالقه، يقول الدكتور ريتشادر توماس: "كُتب معظم العهد القديم باللغة العبرانية – ولا أريد أن أفصّل الموضوع، بل ألفت الانتباه إلى أن القسم الكبير من هذا موضوعٌ بقالبٍ شعري، فالشعر من أقسام الفن الأدبي وهو من ظواهر الحضارة، فالمزامير والكثير من النبوات جاءت بهذا الأسلوب البديع دليلاً لنا على أن الله لا يحتقر الثقافة بل يوحي لأنبيائه لا بحقائق فحسب بل بحقائق عن طريق الشعر السلس الرائع"[3]، مع تحفّظنا على اعتبار اللغة العبرانية لغة قائمة بذاتها.

والشعر العربي القديم منه والمعاصر لا يخرج عن الطابع الأسطوري، إذ يعتمد على صياغة الخيال في إطار معارف الإنسان وخبراته، ولا يُقال عن الصور الخيالية في الشعر أنّها دليل عقلية بدائية غير منطقية، بل على العكس من ذلك، إذ غالبا ما تُقاس قوّة الشعر بكثرة استخدامه للصور الخيالية والمحسّنات البديعية، هذا الأسلوب

---

(1) – **شبكة الحب الإلهي** المسيحية:

http://www.god-is-love.net/modules.php1.

(2) – عباس القمي، **مفاتيح الجنان**، ص ١٨٢ .

(3) http://www.vopg.org/bitmaped/200411/38.htm

اعتمده الشعراء القدماء والمعاصرون باعتباره الأفضل لبيان ونشر الحكمة والمعرفة، تماما كما فعلت الأسطورة في القديم، ليسهل تردّده على الألسن ومن ثمّ وصوله إلى الأذهان واستقراره في النفوس، على سبيل المثال نقرأ لأبي القاسم الشابي الشاعر العربي المعاصر:

والحقُّ مقطوعُ اللسان مكبّل والظلمُ يمرحُ مُذهّبُ الجلباب[١]

فكيف للحق أن يُقطَع لسانُه ويُكَبّل، وأنّى للظلم أن يمرح ويرتدي جلبابا، إنّها صورة خيالية هدفُها بيان الفكرة وتوجيهها نحو تحريك العواطف وشحنها، ولأنّنا نفهم لغة الشعر فلا نجد أي مشكلة في فهم مراد الشاعر من وصفه الخيالي أو تفسير تشبيهاته واستعاراته، هكذا استخدم الشعراء العرب عبر التاريخ هذا الأسلوب في أشعارهم، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، بل واستخدم ذات الأسلوب الشعراء والكتّاب الأجانب أيضاً لعلمهم بفاعليته السحرية على النفوس والقلوب، وهكذا هي الأساطير ذات الطابع الديني الروحاني أضفت على الكلام شكل الرمزية والخيال الذي يحمل في طياته مفاهيم راقية تجد طريقها إلى الوجدان بسهولة ويسر، ولا يخدش في الأساطير ولا في لغتها الشاعرية الجميلة تخلّف عقول المؤرّخين الغربيين وغير الغربيين عن فهمها.

يقول صموئيل كريمر: "كان هدف صانعي الأساطير أنْ ينظّموا قصيدة قصصية ترمي إلى تفسير الآراء والمعتقدات والشعائر الدينية بطريقة جذّابة وملهمة، مسليّة، إنّهم لمْ يهتّموا بسوق الدلائل والحجج المقنعة للعقل والفهم، بل كان همّهم الأوّل أنْ يرووا قصّة تؤثّر في العواطف، ولذلك فإنّ عدّتهم الأدبيّة الأساسيّة لم تكن المنطق والعقل بل الخيال والوهم"[٢]. وما يقوله كريمر صحيح فيما يتعلّق بكونهم لم يهتمّوا بسوق الدلائل والحجج المقنعة للعقل، إلا أنّه لمْ يبحث في سبب ذلك، وهو أنّ السومريين كانوا يريدون تلقين هذه الحقائق لا النقاش فيها، فهم عرفوها هكذا من مصدرها فآمنوا بها وصدّقوها، ولم تصلهم استدلالاً ليقوموا هم بنقلها بدليلها، عدا

---

[١] - أبو القاسم الشابي، موقع المبارك، http://www.almubarak.net

[٢] - صموئيل كريمر، **من ألواح سومر**، ص ١٥٨.

أنّ أدوات الكتابة المتوفّرة (المسمار والرّقم) لا تفي إلاّ بكتابة الحقيقة العارية القابلة للحفظ في قالب أسطوري أدبيّ، ولو وضعوا استدلالاتهم معها وحوّلوا النصّ إلى مادّة عقليّة لما حفظتْ شعوبهم تلك التعاليم، ولربما تضاءلت قدسيّتها وتحوّلت من حقيقة رصينة، إلى مرتبة الاستنتاج العقليّ القابل للنقض مع توفّر أدلّة إضافيّة أو تطوّر العقل وأدواته.

لذلك تعامل "كريمر" أحياناً، بهذه النظرة، لتفسير تلك الأساطير فلم يفهمها ووجّهها غير التوجيه الذي لأجله قامت ودُوّنت، فلمْ يفهم "كريمر" ومن أخذ عنه تفسيره مثلا لماذا جعل السومريّون "أوتو" ربّ الشمس، ولماذا كانت "إنانا" عندهم ربّة الزهرة وأنّهما كلاهما ابنا الإله القمر، لأنّه كان يظّن أن كلّ تلك مسميات لآلهة ومعبودات خيالية وهمية، والحقّ أنّ "أوتو" هو القوّة (وبتعبيرهم يمكن أن يكون الربّ أي السيد المستوجب للمحبة والطاعة) المسخّرة للشمس ولحرارتها وضوئها، و"إنانا" هي ربّة الزهر أي النبات ولأنّ "الزهرة" تُزهر عُزيت إليها ولأنّها كالحارس الرقيب على الناس أحياناً صباحاً وأحياناً مساءً عُزيتْ إليها أيضاً كعيني الرقيب الحافظ الساهر (عينان = إينانا)، فإنانا هي القوّة التي أودعت الحياة في الكائنات التي نبتت وأزهرت أساسا وترعرعت من الأرض، وكلا من هاتين القوتين المدبّرتين جاءتا من عند الله، ومن نور الله (سين)، فهم ملائكة نورانيّون (أثيريون كما لدى المندائيّين) لا أرضيّون.

إنّها كلمات دارجة لذلك الشعب تجعل له خصوصية في تعابيره وطريقة تفكيره وثقافته، ولا يخطئ في فهمها إلا من أتى من خارجها، فأقدر الناس على فهم مقولات الأولين وتفسيرها هم الذين ولدت تلك المقولات بثقافتهم وبلغتهم لأنّهم يدركون الترميز المستخدم، أمّا حين يتمّ الخلط بين الأساطير التعليمية، وتاريخ الملوك وملاحمها وأخبار مدنها، والمدوّنات ذات الطابع التاريخي والملحميّ، مع الأسطورة التي تتكلّم عن الحقيقة الثابتة، لتداخل المفردات المشتركة ووحدة الصياغة الأدبية، يصبح الأمر شائكاً على الباحث، فإنّ فكّ كلمات الأسطورة شيء وتفسيرها أمرٌ آخر، وهذا الأمر هو الذي حدا بإيزيس بإرشاد اتحوت (إخنوخ النبيّ — إدريس)، بفصل الكتابات الشعبية عن الكتابات المقدّسة، لئلاّ يختلط التاريخ بالدين، واللامقدّس بالمقدّس،

والوهم بالحقائق، الأمر الذي وقع فيه المسلمون أيضاً، وكلّ أصحاب الملل، حين خلطوا القرآن وأقوال النبوّة باجتهاداتهم أو بأقوال مدسوسة من هنا وهناك.

العقل الإنساني اليوم هو ذاته العقل الإنساني منذ أودع الله الروح في آدم الإنسان الأول، لم يتطوّر العقل كإمكانيات وقدرات، ولكن الإنسان نفسه تطوّر في وسائل إنتاجه وأدواته وصناعاته عبر الأحقاب الممتدة للإنسانية باستخدام عقله، والتطوّر على هذه الأصعدة تطور تراكمي وما كان بالإمكان للإنسان أن يقفز فوق عصره حتى وإن امتلك المعرفة، فالإمام علي(ع) يقول: "لو شئت أن أصير من هذا الماء نوراً لفعلت"[1]، ولكن هل كان بالإمكان لعلي أن يكشف للناس معلومات عن الكهرباء وسط بنية معرفية غير مهيأة، ذلك أمر غير ممكن لغياب الأرضية المعرفية في ذلك الزمان. فالإنسان امتلك العقل والقيم وأساليب التفكير منذ أن نُفخَت فيه الروح، وآدم الإنسان الأوّل الذي أُهبِط من الجنة الأرضية إلى الأرض ليباشر دوره فيها يتساوى في إمكانياته وقدراته العقلية مع أي من أبنائه إلى يومنا هذا، وتشهد الآثار والمكتشفات في المنطقة العربية والتي تعتبر أقدم المدنيات التي عُثِر عليها، تشهد على إبداعات العقل العربي، ففي منطقة سوريا والعراق توسعت المدن وظهر التنظيم والسلطة الإدارية، التي تمكّنت من حفر أقنية الريّ، وتحسين الإنتاج الزراعي، وظهرت الصناعات ودولاب الخزف والختم الأسطواني واختُرِعَت الكتابة قبل الألف الرابع قبل الميلاد، وفي وادي النيل دلّت الإنجازات العلمية الكبيرة التي بقيت آثارها إلى يومنا هذا على المستوى الذي وصل إليه فكر قدماء عرب وادي النيل، فلقد شيّدوا المعابد والأهرامات والتماثيل على أسس رياضية وفلكية وهندسية راقية، وعرفوا الأرقام والكسور العشرية، وحسبوا المساحات؛ مثل مساحات الدوائر والمستطيلات والمثلثات، كما سجّلوا المكاييل والأحجام وغير ذلك من القياسات المختلفة، وعثر على سجلات مكتوبة بنتائج تطبيقات علوم الرياضيات والفلك والطب والهندسة، إنّه العقل الإنساني المنتج منذ نُفِخَتَ الروح في آدم.

---

[1]- احمد أمين، **التكامل في الإسلام**، ج ٣، ص ٤٨١ .

علماً بأنّ نتاجات الإنسان الفكرية وتفاوتها عبر التاريخ الإنساني الشاسع راجعة إلى بنيته المعرفية وإلى بيئته فالإنسان ابن بيئته، وبطبيعة الحال فإنّ تعبير الإنسان عما يؤمن به ويختلج في نفسه يختلف من زمان إلى زمان ومن شعب إلى آخر، وها نحن اليوم في عصر العلم والتكنولوجيا والانفجار المعرفي لا ندّعي أنّ نتاجاتنا عقلية محضة تخلو من صور الخيال واللامعقول، بل إنّ الخيال الإنساني حين يمتزج بالدليل العقلي يولّد في الغالب مخرجات إبداعية رائعة. وبالنسبة لأولئك الأوائل، فإنّهم عاشوا في فترة زمانية اختصّت برعاية خاصة من قبل المعلّمين الإلهيين لتأسيس أصول العقائد الصحيحة، وقد صاحبها الكثير من المعارف والعلوم اكتسبوا بعضها عن طريق الوحي الإلهي وبعضها الآخر عن طريق الاكتشاف والإنتاج العقلي، وقد باشر أهل ذلك الزمان بعد ذلك إلى تداولها ونظمها على هيئة أساطير دوّنت وحفظت في المعابد والمكتبات، فإذا كان كتابُ التاريخ الموضوع في العصور المتقدّمة على عصور الأساطير وُضع على يد مؤرّخين يتقنون الكتابة على أساس منهجي ومدروس، فإنّ الأولين عدّوا كتابتهم للأساطير بمثابة تدوين التاريخ وحفظ الوثائق لكي تبقى حاضرة في ذاكرتهم وقادرة على التأثير في نفوس أتباعهم لأجل المحافظة على إطار معنوي معيّن يعتقدون أنّ الخروج عنه خروج عن الجادة ومؤد إلى نتائج وخيمة.

يتبين من هذه المناقشة أن قسمة التاريخ إلى عصر أسطوري وعصر تاريخي قسمة تعسفية خضعت لعوامل خارجية لا علاقة لها بالتاريخ الحقيقي للإنسانية، فالتاريخ الإنساني يمثّل وحدة واحدة خاصة فيما يتعلق بالفكر، هذا مع الاحتفاظ بالخصوصية التاريخية لكلّ شعب من الشعوب، يقول الدكتور محمد خليفة حسن: "هناك بلا شك خيط فكري عام يربط تاريخ الشعب الواحد، على الرغم من اختلاف عصور هذا التاريخ، واختلاف الظروف الفكرية لكل عصر من هذه العصور"[١]، وعن الفصل إلى عصر أسطوري وعصر تاريخي يقول: "من الملاحظ أنّ الفصل هنا في الحقيقة فصل في وسيلة التعبير، وليس فصلا حقيقيا لعصرين مستقلين استقلالا كليا، أو فصلا لعصرين مختلفين اختلافا جوهريا في التفكير كما يبدو من الاستخدام العلمي الحديث لهذه المصطلحات عند المؤرخين وعلماء الحضارات في الوقت

[١]- محمد خليفة حسن، **الأسطورة والتاريخ في التراث الشعبي**، ص ٢٨.

الحالي"[١]، لذلك فإنّ قسمة التاريخ إلى عصرين أسطوري وتاريخي أدّت إلى إحداث مشكلة في النظر إلى التاريخ الإنساني كحلقة واحدة متصلة، تبدأ فصولها الأولى بآدم الذي مرّ بعملية تخليق على يد القوى الربانية ليكون مهيأ للخلافة على هذه الأرض، ثم لتمتدّ فصولها بعد ذلك فصلا فصلا لتحقيق الهدف الأسمى الذي ميّز الإنسان عن سواه من المخلوقات ألا وهو حمل أمانة خلافة الله في الأرض، فلا بدّ لهذه الفصول من أن تمرّ في خطّ تطوّر تصاعدي، يكتسب الإنسان فيها العلوم والمعارف عن طريق الملائكة الموكّلين بهذا الإنسان وعن طريق الأنبياء والمرسلين المعلّمين، إضافة إلى جدّ الإنسان نفسه وسعيه الدؤوب نحو الارتقاء بحياته وتحسين سبل عيشه على مرّ التاريخ، فمجموع ذلك كلّه أدّى إلى حصول التطوّر الذي أوصل الإنسانية إلى ما هي عليه اليوم.

من هنا فإن علينا أن ننظر للتاريخ نظرة شمولية وليس هناك أي مبرّر لتقسيم التاريخ الإنساني إلى عصرين أسطوري وتاريخي، فالأسطورة كتاب التاريخ الأول ما هي إلا أحد نتاج العصر القديم، وهي وثائق مدوّنة استمدّت مادتها وشخصياتها وأزمنتها وأمكنتها من التاريخ الذي ولدت فيه، كما أنّها فوق ذلك كلّه حكاية مقدسة يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصحة وصدق أحداثها، وهي سجل لما حدث في الماضي ولها دور أساسي في البناء المعرفي والعلمي والتطوّر الحضاري للإنسانية، أي أنّها أحد أسباب ما وصلنا إليه اليوم من تطور وعلوم، إنّها إذن مصدر من مصادر التاريخ وهي جديرة بالدراسة والاهتمام، ويمكن الاعتماد عليها للحصول على معلومات تاريخية هامة.

ثانياً – الأسطورة مصدر معتمد من مصادر التاريخ

لقد حفظت الأساطير وقائع وأحداث المدن القديمة كمدينة أور وبابل وطيبا[٢]، وذكرت تفاصيل كثيرة عن حضارات الإنسان الأوّل كالحضارة السومريّة والبابليّة

---

[١]- محمد خليفة حسن، **الأسطورة والتاريخ في التراث الشعبي**، ص ٢٨.

[٢]- أور عاصمة السومريين، وبابل عاصمة البابليين، وطيبا هي ثيبا بلدة في اليونان بناها قدموس السوري حينما انتقل إلى اليونان.

وحضارة وادي النيل، وروت حكايات عن ملوك وعظماء أثبتت المكتشفات الأثريّة أنّهم صنعوا تاريخاً حافلاً في الزمن البعيد كجلجامش وسرجون وإيزيس وأوزوريس[١]، كما أنّها نقلت علوماً ومعارف مختلفة عن نشأة الكون وبداية الحياة وخلق الإنسان ومراحل التطوّر البشري، وعلى ذلك فإنّه يمكننا القول **أنّ مادة الأساطير هو الحدث التاريخي**، وكما ذُكر سابقا بأنّ هذا الحدث التاريخي ليس مصطنعاً أو متخيلاً، إنّما هو وقائع وأحداث حصلت إمّا من صنع الإنسان، أو من صنع الطبيعة أو من صنع السماء، وفي كلّ الحالات هو حدث ذو تأثير مهم في حياة الإنسان، يستحق التسطير والحفظ للأجيال القادمة، وإنّ مادة بعض الأساطير بما تحتويه من مضامين رفيعة وعلوم راقية لجديرة بالدراسة والفحص. فمثلا لو تناولنا شيئا من أسطورة التكوين البابلية لوجدناها تروي قصة الخلق وبداية الحياة على الأرض:

حينما في العلى لم يكن هناك سماء،

وفي الأسفل لم يكن هناك أرض

ولم يكن من الآلهة سوى "أبسو" أبيهم،

و"ممّو" و "تيامت" التي حملت بهم جميعا

يمزجون أمواههم معا،

قبل أن تظهر المراعي وتتشكل سبخات القصب،

قبل أن يظهر للوجود الآلهة الآخرون

قبل أن ترسم لهم أسماؤهم، وترسم أقدارهم -

عندئذ تكوّنت الأرباب في تلك المياه[٢].

---

[١]- جلجامش ملك سومري مشهور، وسرجون ملك أكادي وحّد سوريا والعراق وبسط ملكه عليها بأكملها، أما أوزوريس فهو ملك حكم مصر القديمة.

[٢] - فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى**، ص ٥٦.

تتحدث أسطورة الخلق البابلية الشهيرة والمسماة بـ" إينوما إيليش" عن بداية الخلق حينما كان السكون يعمّ الكوكب الأرضي، حيث لم تكن السماء (وهي الغلاف) ولا الأرض- اليابسة قد تشكّلتا بعد، ولا "الأرباب" وهي مبادئ الحياة من قوى الطبيعة، كالهواء والرياح والماء العذب قد برزت بعد، وكان الكوكب الأرضي مجرّد صهير مغطّى ببحر مائي مالح وهو ما سمي اليوم بالغمر البدئي"[1].

فكرة ولادة الكون بالغمر المائي نجدها تتكرّر في الأساطير السومرية بتعبير القوّة "نمو"، وفي الأساطير البابلية الفكرة ذاتها ولكنّهم يسمّون المياه الأولى "تعامة"، وفي الأساطير السورية نجد "يم" تعبيرا عن المياه الأولى، حينما انتصر عليه الإله بعل وبعدها شرع في تنظيم العالم. وفي الأسطورة المصريّة نجدهم يعبّرون عن المياه الأولى بالقوة "رع" وهو الذي أنجب فيما بعد بقية القوى، وفي الأساطير الإغريقية نجد الإله "أوقيانوس" يأخذ دور المياه الأولى ومنه نشأ الكون، وفي التوراة أيضا نجد فكرة المياه الأولى والرب فوقها (**وكانت الأرض خربة وخالية، وروح الربّ يرفّ فوق وجه الماء**)(التكوين: ١، ٢). ثم نجد ذات المعنى موجود في القرآن الكريم، قال تعالى : (**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**)(هود : ٧).

وعن مرحلة ما قبل الخلق نجد في الأساطير حديثا عن الإرادة الإلهية الأولى ببدء الحياة على هذا الكون، تجمع هذه الأساطير على أنّ "الكلمة" الإلهية" هي البداية، تقول أساطير السومريين عن هذا الموضوع:

"**كلمة إنليل، الكلمة**

إن مسّت السماء تمطرها

كلمة إنليل، الكلمة

إن مسّت الأرض تشتعل بالخضرة

كلمة إنليل هي النباتات

[1] - تعتبر نظرية بدء نشأة الكون من الماء من النظريات العلمية التي يرجح كفتها كثير من العلماء والباحثين.

كلمته هي الحب

كملة إنليل هي الماء الغامر

حياة كل البلاد"[1]

ويقول المندائيون: (**باسم الحي، وباسم معرفة الحي، وباسم الوجود الأزلي، الذي سبق الماء، وكان قبل الضوء والنور، ذلك الذي نطق فكانت كلمات، والكلمات كانت كروماً، وكانت الحياة الأولى**)[2]، وفي الإنجيل: (**في البدء كانت الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله وهكذا كان في البدء عند الله ـ كلّ شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان**)(يوحنا : ١ :١)، وفي القرآن الكريم: (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**) (يس: ٨٢).

وعن خلق الإنسان تبدأ الأسطورة السومريّة في بيان فكرة تكوين الإنسان من طين وفكرة تصوير الإنسان على صورة الآلهة وعلى منوالها تجري الأساطير التالية لها:

يقول السومريون:

إنّ الكائنات التي ارتأيت خلقها ستظهر للوجود.

لسوف نعلّق عليها صورة الآلهة

امزجي حفنة طين من فوق مياه الأعماق، ـ

وسيقوم الصناع الإلهيون المهرة بتكثيف الطين وعجنه[3].

ويقول البابليون:

بمعونة أنكي[1] **سوف يخلق الإنسان**

---

[1] – خزعل الماجدي، **إنجيل سومر**، ص١٦ .

[2] – محمد الجزائري، **المندائيون الصابئة**، ص١١٩ .

[3] – فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى**، ص ٤٦ .

الذي سوف يخشى الآلهة ويعبدها

فليعطني أنكي طينا أعجنه ستقوم ننتو بعجن الطين

إله وإنسان معا سيتحدان في الطين[2]

وفي التوراة:

(**وجبل الإله آدم ترابا من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة الحياة، فصار آدم نفسا حيّة..**)(التكوين: ٢ : ٧)

وفي القرآن الكريم:

(**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**)(البقرة:٣٠)، (**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**) (الحجر:٢٩).

إنّ نظرة موضوعية شاملة للأساطير تدلّنا على أنّ مادّة الأسطورة هو الحدث التاريخي، وإنّه من الخطأ الفادح أن ننظر إلى أساطير الأوّلين بأنّها خرافات لا تمتّ إلى الواقع بصلة، لأنّنا بذلك سنفقد حلقات رئيسية تبيّن لنا بجلاء حقيقة مبتدانا ومنتهانا وسرّ وجودنا، وسيكون حالنا كحال من أُعْطِي منزلا فسيحا يرتع فيه كما يشاء إلا أنّه أصرّ على أن يبقى في غرفة واحدة فحرم نفسه من فرصة الانتفاع من إمكانيات المنزل الأخرى. إنّ ما بين أيدينا من الأساطير العربية هي ترجمات لباحثين غربيين عكفوا على دراسة تاريخ المنطقة وأرسلوا البعثات الاستكشافية للتنقيب عن المواد الأثرية منذ نهاية القرن التاسع عشر، في الوقت الذي كانت فيه الدول العربية تعاني من وجعات التراجع والتخلّف الثقافي وحالة من فكّ الارتباط بتاريخها العريق، لقد أراد الغربيون أن يمتلكوا زمام الأمور في ترجمة الأساطير فقدّموا تفسيرات للتراث العربي عجزت مع الأسف عن فهم أبعاد النصوص التراثية والربط بين ألفاظ النصوص وبين العقائد الدينية السائدة، لأنّ تلك العملية تتطلّب إلماما ومعرفة

---

[1] – أنكي: هو أحد الأرباب الملائكة المسئول عن الحكمة والماء العذب، وهو من الكلمة العربية "النقي".

[2] – فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى**، ص ١٠٢.

بالأصول العقائدية واللغوية لشعوب المنطقة الأمر الذي تفتقده بعثات التنقيب والترجمة، كما أنّ اتجاهات التفسير لم تخلُ من أطماع الهيمنة على التاريخ الأصيل للمنطقة خاصة وأنّها تزامنت مع الحملات الاستعمارية والانتداب في مطلع القرن العشرين، فقد نُقلَت الأساطير إلى متاحف أمريكا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا وكأنّها إرث اختصّوا به، ثم تمّ نشرها بعد أن تحكّموا في تحديد معالمها، فجاءت النتيجة مصادرة صريحة لتاريخ شعوب المنطقة وطمس معالم الشعور بالعزة والأصالة ومحو شخصيتها تمهيداً لإذلالها. فالأساطير التي وجدت في المنطقة العربية تعتبر حلقة من حلقات تاريخ الإنسانية، أن لا نفهمها شيء وأن نحكم عليها بالخرافات والخزعبلات شيء آخر، وهي مصدر معتمد من مصادر التاريخ للأسباب التالية:

أولاً: إنّ أثراً من الغيب يقف وراء علم الأوائل لتلك الحقائق، وإلا فكيف اهتدت تلك الأقوام جميعها إلى هذا الأمر وكيف اتفقت على الأفكار ذاتها، وأنّى لهم أن يتناولوا قضايا رئيسة كخلق الكون والإنسان كحقائق مؤكدة في مدوّناتهم ونقوشهم؟ أكانوا شهوداً حينما تمّ الخلق؟ تقول الآية الشريفة: (**مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ**) (الكهف:٥١). فتطابق الأساطير مع الكثير من الحقائق التي طرحها وأكّدها القرآن الكريم كمسألة خلق السماوات والأرض في ستة أيام وخلق الإنسان الأوَّل واجتباء آدم ودخوله الجنَّة ثمَّ خروجه منها، وغيرها من الحقائق يدل على صحّة مضامينها، وإنها كما القرآن الكريم وحي الله إلى عباده عبر أنبيائه، وأنّ القوم كانوا موحّدين عالمين بنظام الكون مذعنين له (**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِه وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ**)(النساء: ١٦٣، ١٦٤). وقد لاحظ الباحثون شدّة إيمان هؤلاء بأقوالهم وتأكيدهم عليها مرات ومرات بطرق متعدّدة تأكيدا منهم على الفكرة، يقول صموئيل كريمر، خبير التراث السومري، مبديا دهشته من يقين السومريين بآرائهم واعتقادهم بصحتها: ".. يُوجد فرقٌ مهمّ بين المفكّرين المحدثين والمفكّرين السومريّين، ذلك أنّ المفكّر الحديث مستعدّ للإقرار بأنّ معرفته واستنتاجاته إنْ هي إلاّ نسبيّة وأنّه متشكّك في أيّ جواب أو حلّ مطلق، ولكنّ

المفكّر السومريّ لمْ يكن كذلك، إنّه كان على يقين من أنّ آراءه كانت مطلقة الصحّة، وأنّه كان يعلم علم اليقين كيف خلق الكون وكيف يسير ويعمل"[١].

وما يؤكّد على ذلك، أنّ الأساطير في الأساس ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمعتقدات الدينية، يقول فراس السواح في كتابه الأسطورة والمعنى: "تنشأ الأسطورة عن المعتقد الديني وتكون بمثابة امتداد طبيعي له، فهي تعمل على توضيحه وإغنائه وتثبّته في صيغ تساعد على حفظه وعلى تداوله بين الأجيال، كما أنّها تزوّده بذلك الجانب الخيالي الذي يربطه إلى العواطف والانفعالات الإنسانية، ومن ناحية أخرى فإنّ الأسطورة تعمل على تزويد فكرة الألوهية بألوان وظلال حيّة"[٢].

وبالنظر إلى القضايا التي طرحتها الأساطير لا نتردّد في القول بأنّها معارف عظيمة وعلوم عليا لا تأتي ابتداء وإنما بحاجة إلى تعليم خارجي، وأنّ الأوّلين صاغوا الأساطير المعتمدة بسبق معرفة وعلى أساس معلومات غيبية حصّلوها من مصدرها الأصلي، بمعنى أنّ هؤلاء لا يمكن أن يقدّموا مثل هذه الحقائق العلمية الباهرة إلا إذا كانت لديهم آثارٌ من علم من بديع السماوات والأرض خالق هذا الكون، فحين عُلّموا الحقائق عن طريق الوحي الإلهي أي بواسطة أنبياء تلك الأزمنة، صاغوها بعد ذلك كما يحلو لهم مترنمين ومتغنين بها وهم على تمام الثقة بما يقولون لذلك نجدهم يقيمون الطقوس والأعياد والاحتفالات لإحيائها وتأكيدها ويكرّرونها بألفاظ وأنماط مختلفة تنبعث منها روح الثقة واليقين. كما أنّ قضايا الأساطير التي نتحدّث عن تعليم الزراعة والمعالجات الطبيّة وعلوم الفلك ترجع في أصولها لما علّمه الخالق لهذا الإنسان عن طريق الأنبياء الذين مثّلوا الصلة بين الله وخلقه، فإذا كان إمكانية توصّل الإنسان لوحده إلى الدواء واستخراجه من الشجرات ليس أمرا ممكنا دونما تعليم وإرشاد إلهي، فكيف بمجمل القضايا الكبرى التي تحدّثت عنها الأساطير، وعلى ذلك جاء في كتاب الأهليلجة في مجادلة الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) الطبيب الهندي الذي زعم أنّ الناس اهتدوا للدواء بالتجربة وطول المقايسة، فأثبت له بأنّه من المستحيل أن

---

(١) – صموئيل كريمر، **من ألواح سومر**، ص ١٥٩ .

(٢) – فراس السواح، **الأسطورة والمعنى**، ص ٢٤ .

يكون واضع الطب وواصف الدواء رجالاً حتى لو كانوا حكماء خطر الأمر على بالهم هكذا فعزموا على طلب ما لا يعرفون وما لا تدلّ عليه حواسهم وظنّوا أنّ فيه مصلحة الأجساد، برغم كونها من منابت مختلفة وألوان مختلفة وعقاقير متباينة في بلدان متفرقة، ولو أنّهم توصّلوا إلى المعارف بالتجربة لكان ينبغي أن يموت في التجارب خلق كثير. إنّه التعليم الربّاني (**عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ**)(العلق:٥)، وهي الهداية الربّانية التي قادت الإنسان وأخذت بيده في مدارج المعرفة والحضارة، وأعانته على تحقيق الاستقرار وتطوير الحياة[١].

فأنّى لهم معرفة نشأة الكون الأولى والخلق الأول، وليس من إنسان إلا وُلد جاهلا (**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً**)(النحل: ٧٨)، وأنّه تعالى قد تكفّل بتعليمه منذ أن خلقه (**خَلَقَ الْإِنْسَانَ❁عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**)(الرحمن:٣،٤) إذن فمصدر هذه العلوم إمّا الملائكة أو الأنبياء والمرسلون ممن لهم صلة بخالق الأكوان.

ثانياً: إنّ هناك طابعاً مشتركاً لهذا التراث يتجلّى بوضوح في الوحدة الواضحة لمضامين الأساطير خاصة في حديثها عن القضايا الكبرى كخلق الكون والإنسان، لاحظنا في الأمثلة السابقة التي تحدّثت عن بداية الخلق وعن خلق الكون والإنسان كيف أنّها احتوت على فكرة واحدة وهو ما يشير إلى وحدة اجتماعيّة وثقافيّة وعلميّة لتلك الشعوب، بل إنّ بعض الأساطير وبسبب تلفها أو فقدان بعض أجزائها يمكن توقّع الأجزاء الناقصة منها عن طريق مقارنتها مع أساطير الحضارات المجاورة، وقد اتّجه كثير من الباحثين إلى محاولة الإمساك بالحبل الرابط الذي يجمع كلّ تلك المعلومات في حلقة متكاملة، فجاءت الأساطير كشاهد على التطوّرات السياسية والدينية والأدبية التي مرّت بها الحضارة السابقة لها، فأسطورة جلجامش الملك السومري الذي عاش في مدينة أورك تذكرها الأساطير البابلية والآشورية بتفاصيل أكثر رغم فارق الزمن بين الحضارتين إذ يصل إلى أكثر من ألف عام. إلى جانب ذلك تشترك الأساطير في شخصياتها الرئيسة وفي أدوارها التي تلعبها داخل الأسطورة في جميع المدوّنات العربيّة القديمة بدءًا من السومريّة فالبابليّة والأكديّة فالأوغريتيّة وحضارة

---

[١] - أنظر: المجلسي، **بحار الأنوار**، ج٣، ص١٨٠.

وادي النيـل مـن أرض مصـر والحضـارة اليونانيـة ولكـن بمسـميات مختلفـة، فأنانـا السومرية هي عشتار البابلية وهـي ذاتها أناة الأوغريتية وهـي إيزيس المصرية وهـي أفروديت عند اليونان، هذا الاشتراك إنّما يشير إلى وحدة هذا التراث وأنّه ليس ضرباً مـن الخرافـة كمـا يُظـنّ، إذ مـن المسـتحيل أن يتّفـق العقـل علـى صـياغة الخرافـة بشخصـيات واحـدة وأدوار واحـدة في منـاطق مختلفـة، ولكـن مـن الممكـن أن يصـيغ الحقيقة مستخدما العناصر نفسها ولكن بمسميات مختلفة تختلف باختلاف البيئة والظـروف، كلّ ذلـك يدلّنا أنّ الـتراث الأسـطوري القـديم ينطـوي علـى حقـائق أصـيلة قائمة على أسسٍ علميّة مؤكّدة أُخذَت من مصادرها الأصلية. إنّ الوحدة الواضحة في مضـامين النصـوص عنـد السـومريين والبـابليّين والآشـوريّين والفينيقـيين وعـرب وادي النيل تشير إلى أنّ النصوص تبثّ من مركز واحد، وأنّ مصدرها واحد. وإنّ اشتراك كلّ تلك الحضارات في تناول مواضيع على جانـب كبير مـن الأهميـة كمسـألة بدايـة الخلـق وأصول الأشياء، ودور القوى الربّانية والكائنات السماوية وشخصيات الأنبيـاء، وقصـة خلق آدم والأرض المقدّسة، والعالم السفلي والحسـاب، وتـرانيم التوحيـد وطوفـان نـوح، إضافة إلى قصص الملاحم والأبطـال، وتضمّن تلك المواضيع لـنفس المعـاني والحقـائق لإشارة أخرى على تناسق شعوب تلك الحضارات ووحدة فكرها وعقائدها.

ثالثاً: إنّ كثيرا من الشخصيات التي كانت تدور حولها الأسـاطير هـي شخصـيات تاريخيـة واقعيـة مـن ملـوك أو حكـام أو أشـخاص مـن الشـعب كـان لهـم دور في الحركـة المجتمعيـة والحضـارية لـذلك الزمـان، وكـذلك المـدن الـتي دارت في فضـائها الأسـاطير، فقد أثبتت البحوث الأثرية وجودها وقيام حضارات كبيرة فيها، وقـد ذكرنـا سـابقا في تفريقنـا بـين الأسـطورة والخرافـة أمثلـة علـى ذلـك، منـها شخصـية جلجـامش الملـك السـومري ونـبي الله نـوح بأسمائـه المختلفـة زيوسـدرا أو أتونابشـتم أو أتراحاسـس، ولا ينبغـي أن يخـرجهم عـن الواقعيـة هـالات البطولـة الـتي غلبـت علـى طريقـة التعبير عـن أفعالهم وأوصافهم لأنّ ذلك إنما حدث لتقريبهم من قلوب الناس، ولتبرير أفعالهم الـتي تبدو أقـرب لأفعـال الخـوارق، وكـلّ ذلـك يسـاعد علـى تقبـل الأفكـار المـراد ترويجهـا في أذهـان عامـة النـاس. فـالرجوع إلى الأسـاطير وفهـم رموزهـا سيكشـف لنـا الكـثير مـن أحوال ذلك الزمان وتاريخ نمو الإنسانية الحضاري والروحي والاجتماعي، خاصة تلك

التي تحمل أسماء البلدان التي دعيت بها منذ ذلك الزمان السحيق، فأبناء الملك أجينور[1] أو أشنار مثلا ملك مدينة صور المعروفة إلى اليوم وهم فينيق وقدموس وكيليك وجاليان انطلقوا كما تقول الأسطورة للبحث عن أختهم أوروبا (عروبا) بعد أن خطفها الثور "زيوس"، فاستقرّ كيليك في أرض هي أبعد إلى الشمال فعرفت باسم كيليكيا نسبة إليه، واستقرّ فينيق في الشمال على الساحل فعرفت البلاد باسم فينيقيا نسبة إليه ومن هناك خرج الفينيقيون يبنون ويؤسّسون أينما ذهبوا، أما قدموس فقد انطلق من صور إلى كريت ومالطا ثم إلى اليونان حيث أسّس مدينة طيبا(ثيبا) كما تقول الأسطورة، بل إنّهم خلعوا اسم "ليبيا" وهي والدة الملك أجينور أبيهم على الشمال الإفريقي كلّه، أما اسم أختهم "أوروبا" فقد أُطلق على البلاد الواقعة على الشواطئ الشمالية للمتوسط.

رابعاً: أنّ الأساطير لم تكن اجتهادات أو أعمالاً فردية، بل إنّها كانت أعمالاً مقصودة ضمن منظومة عامة خُطّط لها بعناية، وإنّ وجودها في المعابد ومكتبات الملوك يعطيها اعتباراً إضافيا فقد كانت تُكتَب برعاية الملك نفسه والكهنة لإثبات أنّها ليست خيالاً فرديًا، بل هي نتاج لتوجّهات الجماعة وعقائدهم وآمالهم الأمر الذي أعطى للأساطير قيمةً كبرى سواء لدى المعاصرين لها أو للأجيال القريبة والبعيدة. والأساطير هي فرع من نظام الدولة المركزيّة الذي عُرف في سومر وبابل ووادي النيل وأوغاريت وعند الفينيقيّين الذين حملوه بعد ذلك لبلاد الإغريق، فالأساطير باعتبارها محركات الوجدان الإنساني والعقلي ساعدت في الاستقرار الذي شهده الإنسان الأول وما صاحبه من التطور الكبير، في النظام السياسي والإداري والزراعي والصناعي والتعليمي واختراع الكتابة قبل الألف الثالث قبل الميلاد، ويمكننا القول أن تدوين الأساطير جاء انسجاما مع نظام المجتمعات القديمة، الذي استخدم الكتابة ووظّفها لتوثيق تاريخه وعلومه وأفكاره، بل لم تكن الأساطير وحدها هي التي تدوّن، فلقد كان النظام يدوّن سجلات المعاملات التجارية، وأسماء المواليد، وعقود الزواج وغيرها.

---

[1] - يمكن أنّ تكون آجي- نور هي حاجي/هاجي التي صارت لدى لهجات ثانية آغا أيضاً وهو السيّد الروحي الذي له ارتباط بالمركز الرباني، ونور/نار معروفة.

خامساً: لم تكن الأساطير الأسلوب الوحيد الذي عبّر من خلاله الإنسان الأوَّل عن أفكاره، فإلى جانب الأساطير، نجد الكثير من الرسوم والتصاوير التي وجدت منقوشة على جدران المعابد، فالقوم كانوا يؤكدون على الفكرة بأشكال مختلفة تماما كما يفعل إنسان اليوم، يترجم الفكرة إلى رسم أو مسرحيّة أو قصة أو عرض تسجيلي سينمائي أو كمبيوتري حسبما يمتلك من إمكانيات ووسائل، كذلك كان الناس الأوائل، ولشدة يقينهم بتلك الأفكار أنشأوا الأساطير، وإلى جانبها نقشوا الرسوم والتصاوير التي عبّرت عن ذات الأفكار ولكن بصورة تمثيلية تصويرية، طبعاً هذا عدا عن تداول ذلك التراث شفاهاً بالأحاديث الدارجة وهو الأصل، بل إنّهم وللتأكيد على قدسية هذه الأفكار أولاً، ولحفظها من أن تنالها يد التحريف ثانياً، نقشوها برعاية الملك والكهنة فوق جدران المعابد والقصور أو كتبوها على ألواح طينية ورُقُم تُذهلُ العقل لدقتها وبراعتها، أو وضعوها داخل جِرار ثمينة وحفظوها في المعابد، وفي مكتبات القصور الملكيّة.

ونذكر على سبيل المثال، هذا الختم الاسطواني السومري الذي يعود إلى قرابة ٢٢٥٠ قبل الميلاد:



(الصورة: ١٣) ختم أسطواني سومري

وقد نقل في تفسيره له الآتي: "أنّ الختم يمثّل الإله شمش وهو يخرج من قبره في جبل الأموات بموجب تفسير بعض الباحثين، وعلى الرغم من أنّ الختم يتعلّق بالإله شمش إلا أنّه في موضوعه يتضمّن فكرة موت الإله وبعثه، ولذلك فإنّه من غير المستبعد أن تكون بعض صفات إله النبات قد نسبت إلى الإله شمش خاصة وأنّ هذا العصر الأكدي الذي يعود إليه الختم يقترن بسيادة الجزريين، وإذا ما صرفنا النظر عن بعض التفصيلات فإنّ أهمّ ما يذكر عن هذا الختم رسم الإله شمش أثناء بزوغه من قبره الجبلي وهو يحمل بيده منشارا وأشعة الشمس تنبعث من كتفه ويظهر إلى اليمين من ذلك الإله أيا وهو يضع إحدى قدميه على الجبل كما يظهر الطائر أنزو باسطا جناحيه والذي يعتقد أنّه رمز للقوى الشريرة التي تسبّب موت الإله، وإلى اليسار من القبر تظهر آلهة يعتقد أنها عشتار وإلى جانبها شجرة تعبّر عن معنى الخضرة المقترنة بعودة الإله إلى الحياة"[١].

أما تعليقنا على هذا التعليق فهو أنّ ثمّة تخبّطاً في فهم أساطيرنا من قبل علماء الغرب ثمّ ينساب ليتسلّل عبر المترجمين العرب، فما معنى أنّ الإله "شمش" يظهر من قبره الجبليّ"؟ لا معنى له. وما معنى أنّ يكون الطائر أنزو و(الذي يُعتقد أنّه رمز للقوى الشرّيرة التي تسبّب موت الإله) حسب المذكور أعلاه، واقفاً ومحلّقاً على الربّ "إيا/أنكي"؟ لا معنى له أيضاً. وما معنى عبارة (شجرة تعبّر عن معنى الخضرة المقترنة بعودة الإله إلى الحياة) وهذا شيء له ارتباط بدموزي (كمظهر للخصب) الذي يقضي عليه "موت"، ولا علاقة له "بشمش" كإله يعود إلى الحياة، ما جعل المفسّر والمترجم يصطنع عبارة "قبره الجبليّ"؟ أيّ قبر جبليّ هذا، والجواب أيضاً: لا معنى له. وعلى ذلك فالمشهد الختامي بهذه التخبّطات، لا معنى له، مع أنّ البعض قد أشار إلى أنّ هذا الموقع (القبر الجبليّ!) ما هو إلاّ جبل "ماشو" الوارد ذكره في ملحمة جلجامش.

فلو أردْنا أنْ نخفّف كثيراً من لخبطاتهم، ونجعل للختم معنى، جعل الأوائل يحرصون على ادّخاره كختّمٍ مقدّس، لقُلنا:

---

[١] - فاضل عبد الواحد علي، **عشتار ومأساة تموز**، ص٤٠.

إنّ الرسم يُبيّن اجتماع القوى الطبيعيّة (أسباب الطبيعة) التي يقف وراءها حتماً مدبّرون ربّانيّون بإذن اللّه تعالى، اجتماعهم في مسألة خلق اليابسة كمنصّة انطلاق لخلق الكائنات النباتيّة والحيوانيّة وأخيراً البشر.

فالأوّل من اليسار (نين- نورتا): نين = المعتني، نورتا = النار، المعتني بالنّار، وهو البركان القاذف، فهو الذي أخرج اليابسة من بحر الغمر البدئي الذي لفّ الأرض قبل بضع مليار سنة، ثمّ ظلّت هذه الجبال بركانية قاذفة، تدّخر تحتها جهنّماً من الحميم.

والثاني، عشتار، التي اعتلتْ على الجبل فصار جبلاً مزدهراً، "عشتار" مفهوم لمبدأ الخصب والنسل والزوجيّة الفطريّ في الأشياء الذي حوّلها إلى أحياء وأدامها، التي بها قدْ تلاقحت الموادّ وتكاثرت، ورمزها "الشجرة" التي بجانبها، فهي الطبيعة الحيويّة، وهذه القوّة هي التي حوّلت الجبل البركاني القاذف بعدما برد إلى جنّة خصبة تحوي كلّ أنواع النبت والثمار والحيوانات.

الثالث، شمش، وهي الشمس، بضوئها وحرارتها، خرجت من بين القمّتيّن، فكانت القمّتان هذه أوّل يابسة في كوكب الأرض تشرق عليها الشمس، وكان الإنسان العاقل بعدما خُلق ثمّ تواجد نسله خارج الجنّة في الكوكب الأرضي، فقد نشأ في هذه البقعة، ما بين هاتيّن القمّتيّن، هاتان القمّتان إحداهما ناحية الشرق والأخرى ناحية الغرب، وكان الإنسان الساكن بين "السدّيّن" هذين يرى الشمس تخرج من وراء القمّة الأولى، وتغرب وراء القمّة الثانية، هذا الجبل أُطلق عليه "ذو القرنيّن" أو (البنائيّن = بن بن) كما لدى عرب وادي النيل، وهو الذي ورد في ملحمة جلجامش أنّه "جبل ماشو" كما أشار بعضُ المترجمين إلى ذلك في هذا الختّم، وصدَق.

وهو الجبل ذو القمّتيّن من جبال السراة، جبل السدّ، جبل شدا، بقمّتيْه المهيبتيّن، حيث تواجدتْ تلك القوى الربّانية (الطبيعيّة) الأولى لاستهلال صنع هذه المعمورة بأحيائها!

الرابع: إيا (حياة)، أو لدى البابليّين (أنكي= المنجي) قوّة الماء العذب، فلذلك رُسم كرمز شخص تنبعث من كتفيْه الأنهار، وهي الأنهار التي فاضت من ذلك المنبع، من

تلكم الأغوار، حيث (الأبسو) خزّان الماء العذب أسفل تلك الجبال. والماء هو الذي جعل اللّه منه كلّ شيء حيّ، ففيه فعاليّة الحياة.

الخامس، هو المرافق لأنكي (قوّة الماء) دائماً، وهو "إيسمد" والاسم قريب من "سمد، أسمد" أي أخصب النبات بالمواد الترابيّة العضويّة، فنرى "إيسمد" دائماً مرافقاً لقوّة الماء (إنكي) في مستويات الخلق، والتطوّر والإنشاء، فهي خصوبة التراب (المواد العضويّة).

والسادس: هو الطير، وقد أخطأوا حين ظنّوه "أنزو" (أن- سو= عين سو، عين السوء والحسد والشرّ) وهو رمز لإبليس نفسه، أخطأوا لأنّ (أن- سو) لا علاقة له بأنكي، ولا بموت الإله، بل قد سرَق "لوح المصائر" من "إنليل"، و"إنليل" هذا هو إنليل البشري (آدم) وليس إنليل الربّاني (الرّوح)، فالطير هنا رمز للرّوح، وللهواء أيضاً كمصدر معلّق في الجوّ للحياة، وفي الإنجيل (كان روح الربّ يرفرف على الماء) الصورة نفسها، روح الربّ ترفرف على (أنكي).

فبعد أن برد البركان (نينورتا)، وظهرت اليابسة (الجبل ذو القمّتيّن)، وبعد اجتماع هذه القوى الطبيعيّة (الماء/أنكي) مع (التراب المسمّد/إيسمد) و (الحرارة والضوء /شمش) و الهواء (طير إنليل)، وبتلاقحها وتزاوجها وتخصّبها تنتج عشتار التي خرجت بذلك كلّ أحياء اليابسة من نبات وحيوان (أشجار عشتار)، هذا التفسير يجعل للختم معنىً علمياً ومقدّساً.

إلى جانب ذلك فقد ساعدت الأساطير على إنتاج فنون أخرى وتنشيط حركة الإنتاج العقلي الإنساني وإبداعاته كالموسيقى والغناء والمسرح، يقول فراس السواح في كتابه مغامرة العقل الأولى "وإلى جانب الشعر والأدب، خلقت الأسطورة فنونا أخرى كالمسرح، الذي ابتدأ عهده بتمثيل الأساطير الرئيسة في الأعياد الدينية. كما دفعت فنوناً أخرى كالغناء والموسيقى وغيرهما"، " كانت الأساطير تنشد وتمثّل في المناسبات والاحتفالات الدينيّة العامّة، من مثل أعياد رأس السنة في بابل، حيث كانت تتلى وتمثّل أسطورة التكوين البابلية، وفي أعياد الربيع حيث كانت تتلى وتمثّل عذابات

الربّ تموزي"[1]، وهي أشكال مختلفة للتعبير عن الفكرة، حيث يشير إلى ثقة القوم ويقينهم بما يقولون.

وأخيراً، لا بدّ من القول أنّ لكلّ أسطورة قيمة ودلالة وجوهراً بحاجة إلى الكثير من التدقيق والتمحيص والتعمّق لإدراكه وفهمه، كما أنّها تحتوي على تعابير تكمن فيها أسرار ومعاني بحاجة إلى الدرس، ولا يمكن الوصول إلى هذا اللبّ ما لم تكن منطلقاتنا التي نبتدئ بها صحيحة، إذ يتوجب علينا فكّ رموز مجامع الآلهة، والتعرّف على قوى الكون والطبيعة التي تؤكّد عليها الأساطير، وماهية الأدوار التي يعتقد الأوّلون أنّها تقع تحت مسئولية تلك القوى، ثم ما هي معاني الأسماء وهل يمكن أن تكون تلك الأسماء رموزا تحدّد شخصية تلك القوى والأسباب والدور التي تقوم به في خضم الأحداث، وما علاقة الأساطير باللغة التي يتحدّث بها أصحاب الأساطير وما الأساس الذي على ضوئه كُتبَت ودُوّنت؟ نحن نعتقد أنّ فهم اللغة العربيّة بكل لهجاتها السريانية والفينيقية والعرباء، على اعتبار أنّها اللغة التي كتبت بها الأساطير السومريّة والبابليّة والأوغاريتيّة وحضارة وادي النيل هو أمر في غاية الأهميّة؛ لتحقيق فهم موضوعي للأساطير، بالإضافة إلى ضرورة معرفة حدود استخدام اللغة عند الأولين ووسائلهم في توظيف هذه اللغة للتعبير عن المفاهيم العلميّة والعرفانيّة حسب المستوى الذهني والنفسي للوسط المُستهدف، ومن لم يهتدِ إلى ذلك لا يمكن له أن يهتدي إلى المفاتيح التي ينفذ بها إلى لبّ الأساطير ليستطيع أن يفكّ ألغازها ويفهم رموزها، وسوف يتحدّث الفصل الثالث بشيء من التفصيل عن ذلك.

وهكذا تظهر لنا الأهمية الكبرى لتلك الوثائق، وعلى وجه الخصوص في توفيرها مصادر غزيرة للبحث والنظر في أحوال الأمم السابقة، فالأساطير تعدّ أوّل كتابٍ وضع في التاريخ، ولقد كُتبَ في المنطقة العربية، وإليها يعود الفضل في كشف معالم التراث القديم والتعرّف على حياة الإنسان الأول وإماطة اللثام عن أحداث تاريخية حقيقية يمكن أن يُستَنبَط منها مواد تاريخية غاية في الأهمية على مستوى حياة الإنسانية ومعرفة مبتدئها وحاضرها ومآلها.

---

[1] - فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى**، ص ٢٠.

ثالثاً - الأساطير في القرآن الكريم

إنّ لكلّ لفظة قرآنية سرّاً وحكمةً تدلّ عليها آياته سبحانه، وإنّ أحد سبل الوصول إلى مراد الآية هو بالتعرّف على دوْرها الخاصّ في موقعها الخاصّ وربطها بما قبلها وما بعدها، ثمّ ربطها بهويّة السورة واسمها الموقوفة عليه، كما أنّ انتقاء الموضوع الواحد المتناثر بآياته في سياقات مختلفة في سور متعدّدة ووضعه في قائمة تشتمل مجاهيل ضمن معادلات قرآنية له دوره الكبير في محاولة اقتناص مراد الآيات، ولا غنى عن الإقرار بأنّ فهم آيات الله مهمّة ليست سهلة، ولابدّ لتحقيقها من ترسّم معالم الصورة كاملة حول الموضوع، ولا بدّ من السعي للدمج بين المفردة القرآنية والمدلول التاريخي للفظة العربية أي معناها المستخدَم المتعارف.

ورد لفظ "الأساطير" في تسع موارد متفرقة في القرآن الكريم، وهو تكرار يستحقّ بذل المجهود لدراسته واستخلاص المعاني المخبوءة فيه، ولنا أن نسأل: ما موضوع الآيات التي ذكرت الأساطير؟ ومن الذي قالها؟ وما دواعي القول؟ ولماذا ذُكرَت الأساطير في تلك المواضيع دون غيرها؟ وهل أنّ الله سبحانه قد ردّ على من ذكر الأساطير؟ ولماذا؟ وما هي العناصر المشتركة في الآيات كلّها؟ وهل يمكن فهم شيء عن مضامين الأساطير من خلال فهمنا للآيات؟ ولماذا لم تأتِ لفظ "الأساطير" لوحدها بل جاءت في الآيات كلّها بـ"أساطير الأولين"؟

لم تردْ كلمة الأساطير لوحدها في جميع الآيات التسع، بل وردت مضافة إلى الأوّلين "**أساطير الأولين**"، وجاءت ثمان آيات منها في سور مكيّة، عدا سورة واحدة مدنية هي سورة الأنفال، التي تعتبر سورة انتقالية للعبور من العهد المكي إلى المدني، وقد استصحبت بعض آياتها واقع المشركين ومنها مقالتهم بأنّ الآيات التي يسمعونها ليست إلا أساطير الأوّلين. العنصر المشترك في جميع آيات "**أساطير الأوّلين**" أنّها وردت على لسان الكافرين لدعوة الحقّ، ولم ترد على لسان غيرهم من أهل الكتاب، كما أنّ كلّ الآيات قيلت في مناسبات الاحتجاج والجدال حول قضايا إيمانية عقلية منطقية تدعوهم إلى النظر في الدعوة الجديدة نظرة متجرّدة أبرزها الدعوة للتوحيد وقبول البعث والحساب، وأمام عجزهم عن ردّ الحجة بالحجة يلجأون إلى إغلاق باب الجدال بنسبة ما يسمعونه إلى أساطير الأولين، وفي ذلك إشارة واضحة أنّ هؤلاء

كانوا يعلمون أنّ هناك تراثاً مسطوراً وضعه الأوّلون ويبدو أيضا أنهم كانوا يحتفظون في أذهانهم ببعض معالمه، ودعوة الرسول قد ذكّرتهم بتلك المعالم، فأقرّوا بأنّ ما يعرفونه سابقاً عن أساطير الأولين يتضمّن معاني تقترب لما جاء به الرسول وهي تخالف معتقداتهم وما هم عليه، وفي ذلك إشارة إلى أنّ هذا التراث قد حافظ على مضامينه أو بعضها إلى عهد الرسول(ص) عبر تناقله شفهيا إذ لم تكن المدوّنات والرُقُم متداولة كونها تختصّ ببقاع عربية أخرى ولكونها بقيت مطمورة تحت الأرض لآلاف السنين قبل أن تكتشف في العصر الحديث.

إذا ثبت هذا الأصل فإنّه يبقى أمامنا محاولة فهم المعاني التي وجد المشركون أنّ لها صلة بالأساطير، وعلى أساسها اتّهموا آيات القرآن أنّها نفس الأساطير، فربّما يمكنّنا أن نخلص إلى مضامين الأساطير التي عناها هؤلاء، ولنا أن نطرح السؤال التالي بعدها: لماذا اعتبر هؤلاء أنّ أساطير الأولين تراث خاطئ غير جدير بالاحترام بل اعتبروه تراثاً "متخلّفاً"؟ ولماذا اعتقدوا أنّ ما يسمعونه من آيات وتعاليم يتوافق مع تلك الأساطير أو الخرافات من وجهة نظرهم؟

سنتجوّل في بحثنا في الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظ "**أساطير الأولين**" حسب تسلسلها في القرآن، في محاولة للإجابة على التساؤلات السابقة، والخلوص بنتائج تفيد البحث.

أ- سورة الأنعام: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)(الأنعام: ٢٥).

في سورة الأنعام تدعو الآيات الناس إلى التوحيد بناء على دلائل وبراهين عقلية، فالله خالق السموات والأرض جاعل الظلمات والنور، خالق الإنسان من طين هو المستحق للعبادة الخالصة. والرسول هنا يذكّرهم بالحقيقة كاملة، حقيقة الوجود وغايته ومنتهاه بدلائل سمعية عقلية وبشواهد وآثار يرونها حولهم، أما "الذين كفروا" فقد أغلقوا على أنفسهم منافذ التفكير، على الرغم من استعراض السورة لسلسلة من الأدلّة العقلية في موضوعات مختلفة تؤدي حتماً عند المتأمّل العاقل للإيمان بالله

وتوحيده وفق منطق البرهان العقلي، وقد كان أولئك يستمعون إلى تلك الأدلة إلا أنّهم لم يتمكّنوا أن يفقهوا شيئاً مما يسمعونه بسبب حُجُب يعانون منها، تلك الحجب أغلقت عليهم أهم منفذ من منافذ العلم وهو الاستماع المتجرّد، أمّا المنفذ الآخر لإدراك الحقائق وهو "الرؤية" أي معاينة الآيات والدلائل الخارجية التي تفسح المجال أمام العقل للتفكير والمراجعة فهو الآخر واقع تحت شراك تلك الحجب.

السورة تدعو من أوّلها إلى السير في الأرض ومحاولة تلمّس الحقائق ومعاينة دلائل العبودية لله، ومنها حسب سورة الأنعام آيات إهلاك الأقوام السابقة بذنوبهم، في محاولة لدفعهم لمراجعة حساباتهم، وإقناعهم بمنطقية دعوة الرسول وتحذيرهم من يوم القيامة، إلا أنّ تلك الدعوة لم تجد قبولا عندهم، وفي الوقت الذي تكتمل فيه الحجة، وتستكمل الدلائل والبراهين على أحقية كلام الرسول ومنطقيته يواجه "الذين كفروا" ذلك بالصدّ والإعراض، ويعلّلون موقفهم بأنّ ما يسمعونه ليس إلا "أساطير الأولين"، فليس الآيات عندهم إلا من عرض الخرافات كحال أقوال الأوّلين.

الآيات لمْ تنفِ قولهم ولم تردّ عليهم مقالتهم، بل عقّبت "**وهم ينهون عنه وينأون عنه**" بعد قولهم مباشرة، ما يدلّ على الاستنكار من قولهم، فإذا كانت الآيات – كما يدّعون- مثل أساطير أولّيهم وأنّ لا قيمة لها عندهم، فلماذا مع ذلك هم ينأون وينهون عنها، هل انقطعوا عن أصولهم الأوّلية؟ ويُلاحظ أن الآيات تختتم في سياقها بقوله تعالى: "**وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ**" إشارة إلى أنّ ما سبق ذكره جاء في أخبار المرسلين، فلقد حمل مهمة الرسالة والتبليغ المرسلون قبلك وإن كان ثمّة كتابات أو أساطير أو أي شيء يدعو للتوحيد فإنّها من آثارهم.

لقد وجد "الذين كفروا" تشابها بين آيات الله وبين أساطير الأوّلين، تمثّل هذا التشابه في احتواء كلّ من الآيات والأساطير على آيات الربّ والدعوة لتوحيد الله وبيان حقيقة الوجود وعلّة الخلق ودور الملائكة والرسل في الأرض، والإيمان بالبعث والحساب والاستعداد للقاء الله، كما أنّ ذكر السورة لأحوال الأمم السابقة وحالات الإهلاك للمكذّبين مذكور أيضا في الأساطير، فقصّة نوح وإهلاك قومه بالطوفان خبر ذكره القرآن وتداولته الأساطير، أمام ذلك كلّه يأتي ردّهم في نهاية الآيات بأنّ ذلك ليس إلا "أساطير الأوّلين" للإشارة أنّ الذي تقوله موجود سابقاً، فانتحلته وادّعيتَ

النبــوّة، فعقّــب ســبحانه (**فَـإِنَّهُمْ لا يُكَـذِّبُونَكَ وَلَكِـنَّ الظَّـالِمِينَ بِآيَـاتِ اللَّــهِ يَجْحَدُونَ**)(الأنعام: ٣٣)، فتكذيبهم بآيات الله وما دعت إليه هو عين ما جاءت به الرسل سابقاً، فهم ضدّ الرسول وضدّ الرسالة التي تُحاكي في أصولها أساطير الأوّلين واعترافهم إقرار بيّن بذلك، ومع ذلك فهم ينهون عنه وينأون.

ب - سورة الأنفال: (**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ❖ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**)(الأنفال: ٣١، ٣٢).

سورة الأنفال سورة مدنية تتحدّث عن أول المواجهات بين المؤمنين والمشركين في غزوة بدر، وتتناول أسباب هذه المواجهة التي كانت نتيجة طبيعية لاستمرار هؤلاء في الدخول في النفق المظلم بسبب عتوهم وتحدّيهم للحق، ورفضهم الاتعاظ بسنن الأوّلين وقبول مبادئ دعوة جديدة تخالف معتقداتهم، فلقد كان الرسول الكريم(ص) يتلو عليهم الآيات، و"الذين كفروا" كانوا يستمعون إليها، وحسب السورة فإنّ الآيات التي كانت تتلى عليهم في مكّة تتضمن دعوتهم إلى التوحيد ونفي الشرك والامتناع عن صدّ المؤمنين عن المسجد الحرام، فهم ليسوا ورثة المسجد الحرام، لأنّه بيت الموحّدين على وجه الأرض، وقد رفع الأنبياء قواعده، وحقيقته ترجع إلى الزمن الأول وبداية التكليف على الأرض، ثمّ رفعت قواعده ليكون مناراً للتوحيد وللعبادة الحقّة، ولا يليق به ما يقومون به من صلاة المكاء والتصدية. نجدهم هنا أيضا لم يتحمّلوا ما يسمعونه، فنسبوه لأساطير الأوّلين، فقد طرأت الأساطير على أذهانهم حين وجدوها تتطابق مع ما يسمعونه، نلحظ ذلك بوضوح من خلال أدوات القصر والحصر مثل: "إن، إلا" التي استخدمت في أغلب الآيات التي تذكر أساطير الأولين، فالأساطير كما القرآن كلاهما يصفان آيات الربوبية ويدعوان إلى التوحيد على خلاف الشرك الذي هم عليه، لذلك أكّدوا أنّ الحديث ليس جديدا عليهم، فلقد سمعوا مثل هذا الكلام من قبل، ولو شاءوا لقالوا مثله ولاعتقدوا بمثله، بل لقد وصل بهم حدّ الاستخفاف بهذا الحقّ إلى دعاء تطفح منه عبارات التبجّح والعناد. وهذا يُبيّن لنا بشهادة المشركين أنّ دعوى التوحيد هي الموافقة لأساطير الأوّلين لا دعواهم دعوى الشرك،

وهذا وحده كفيل بنسف كلّ التصوّرات التي جعلت من أساطير الأوّلين بناءً عقديّاً شركيّاً (تعدّدياً).

ج - سورة النحل: (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**)(النحل: ٢٤).

حين يُسأل المؤمنون ماذا أنزل ربّكم، يقولون خيرا، أما حين يُسأل المستكبرون ماذا أنزل ربّكم، فيجيبون أساطير الأولين. بالرجوع إلى بداية السورة نجد السورة تستهل بآية (**يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ**)(النحل:٢) الله ينزّل الروح أي الوحي، وهو المادة المنزلة على رسوله بما تتضمّنه من أخبار خلق الكون وتنظيم الوجود وتوجيهات وأوامر ونواهي وتذكير ووعيد وقصص وأحوال الأمم السابقة، ولبّ الوحي نبذ الشرك والدعوة للتوحيد وإخلاص العبودية لله، والسورة تدعو لذلك وتتغنّى بجمال خلقه وروعة إبداعه في خلق السموات والأرض والجبال وتسخير الشمس والقمر والنجوم والبحر وتسخير الأنعام وتنظيم الأرزاق، هذا الحديث يذكّر المستكبرين بأساطير الأولين تماماً، الذين تغنّوا في أساطيرهم بالخالق ودعوا لتوحيده وعبادته كما نقرأه عند المندائيين الموحّدين والسومريين والعرب المصريين وغيرهم من الأوّلين، ألا يدلّنا ذلك على علم هؤلاء بمضامين الأساطير ولذلك طابقوها مع ما سمعوه من الرسول.

فهنا إقرار منهم أنّ أساطير الأوّلين، لمْ تأتِ بتعدّد الآلهة والأرباب والشركاء (على خلاف ما يدّعيه مترجمو الأساطير، فمشركو قريش أقرب لفهمها من مفسري الأساطير في زماننا هذا إذ هم على بعد عدّة آلاف من السنين)، فالأساطير تقول أنّ الخالق واحد والإله واحد، وتدعو للإيمان بالآخرة وتصديق الرسل وعدم الاستكبار. والملاحظ أنّهم حين سُئلوا "ماذا أنزل ربُّكم؟" لمْ يقولوا "أساطيرَ" بفتح الراء، ليكون جوابهم: أنّ الله أنزلَ أساطيرَ الأوّلين، ولكنّهم أجابوا: أساطيرُ الأوّلين، بضمّ الراء، وهو كلام باتجاه آخر، وكأنّهم أعرضوا عن الجواب لإجابة أخرى أرادوا بها القول أنّ مجمل الدعوة الجديدة هي أساطير الأوّلين، فلقد كانوا يرون اختلاف الصياغة بين آيات الله وبين الأساطير، على الرغم من التشابه الواضح بينهما، لأنّ آيات الله لا يعلو عليها،

لذا لم يقولوا أنّها هي أساطير الأولين تماما، غير أنّ السبب الرئيس الذي جعلهم يعرضون عن الإجابة عن السؤال هو استكبارهم، فهو الذي جعلهم لا يرون أنّ اللّه أنزل شيئاً أبداً، بل الأمر عندهم كلّه انتحال لأساطير الأوّلين والدليل أنّها تدعو إلى المعاني نفسها، واللّه سبحانه يُبيّن لهؤلاء خطورة موقفهم، فالذين من قبلهم تعاملوا بالاستكبار والمكر مع الحقائق فأهلكهم اللّه وعذّبهم من حيث لا يشعرون، فتلك هي سنة اللّه في خلقه، أدركها الأوّلون وشكّلت تلك الحقيقة جزءا من أساطيرهم.

د- سورة المؤمنون: (**بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ* قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**)(المؤمنون: ٨١ – ٨٣)

المشركون اعترفوا بأنّ التوحيد والبعث والوعود الإلهية موجودة في أساطير الأوّلين، ولكنّهم لا يأبهون بها ويعدّونها من قبيل الخرافات (تماماً كحال من ساوى بين الأسطورة والخرافة في يومنا)، والآيات بإعراضها عن الردّ عليهم تقرّهم على مقالتهم لأنّها ما خالفت وجه الحقيقة، فالتوحيد ونبذ الشرك مفاهيم موجودة في الأساطير، والأحاديث عن عوالم سفلية وجنّة علوية ويوم حساب موجود أيضاً في الأساطير، والآيات هنا تنقل مقالتهم، وتستهزئ بعقولهم التي حكمت على القضايا العقلية بالبطلان كونها مذكورة عند الأوّلين، وتذكّرهم بأن ثمّة أوّلين معاندين أيضاً من قبلهم قالوا مثل قولهم، والأوّلون لفظ لا يرتبط بمرحلة معينة، فكل من سبق عصر المتكلّم هو من الأوّلين، فهم لم يختلفوا عمّن سبقهم في شيء، فتلك هي سمة البشر على مرّ الأزمان، فإنكارهم وإعراضهم ليس بجديد، فقد فعله من قبلهم، ومقولتهم تشبه مقولة الذين سبقوهم في ردّهم على أنبيائهم، ووعد اللّه قائم لا تمنعه اعتراضات المعترضين.

هـ- سورة الفرقان: (**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً* وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً* قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً**)(الفرقان: ٤-٦)

الأمر صار بيّناً؛ فلو جمّعنا مقولاتهم في الآيات الأخرى وربطناها مع هذه الآية لخلصنا بأنّهم في الأساس قد كفروا بالتنزيل، مع إيمانهم بأنّ نفي الشرك في الألوهية وفي الخلق، وقضايا الموت والبعث والنشور، موجودٌ في الأساطير، وأنّ النبيّ (ص) قد قام بافتراء النبوة ونسبة القرآن إلى الله، وهو في الحقيقة أساطير الأولين اكتتبها وأُمليت عليه، وهو اعتراف آخر مؤكّد بتطابق ما يقوله الرسول بمقالات الأقدمين، إلا أنّهم لا يليق بهم الإيمان بأساطير الأوّلين ولا بإعادة صياغتها على يد محمّد! فكلّها ذات مضمون واحد وإن صيغت بكتابات مختلفة.

و - سورة النمل: (**بَلْ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمِينَ* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**)(النمل: ٦٦- ٦٨).

تتحدّث السورة هنا عن نفي الآلهة مع الله وتدعو إلى العبودية لخالق الخلق ومعيده ورازق الحياة في السماوات والأرض، وتذكّرهم الآيات بعلم سابق متعارف عليه منذ وجد الإنسان على الأرض هو العلم بالآخرة والإيمان بالبعث، هذا العلم قد تضاءل بل تبدّل من حالة اليقين إلى الشك إلى حالة الجحود والنكران، تظهر تلك الحالة صريحة في ردّ الذين كفروا بأنّ هذه أقوال ووعود موجودة في "أساطير الأولين"، وبالنسبة لهم لمْ يتبيّن صدقها ولمْ تثبت صحّتها من قبل، بل هي مزاعم كمزاعم الرسول تماماً، فهي تتطابق مع قوله في المضمون وخاصة قضية الوعد بالبعث ثُمّ الحساب، وما تتطلّبه من قضايا الإقرار بالخالق وتوحيده وخلوص العبودية له، ونصرة رسله والكفّ عن مساخطه.

ز - سورة الأحقاف: (**وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**)(الأحقاف: ١٧).

يختلف الموقف هنا، فطرفا الحوار هما أبوان صالحان مع ابنهما المشرك، والدعوة من الأبوين لولدهما بالإيمان بالله وبالبعث والحساب، فيردّ الابن بأنّه غير مستعد للإيمان بهذه الخرافات، التي يسمع عن وجودها في أساطير الأوّلين. الآية

تدلّ أنّ "أساطير الأوّلين" معروفة عند الجميع جيلا بعد جيل، وقد احتفظت الأجيال بالتعاليم الربانية في صورة أساطير، وأهمّها قضية الإيمان بالله والاستعداد للبعث والحساب، في كلّ مرّة يسمع الابن المشرك مثل هذه الدعوات يُؤكّد بأنّ "هذا" أي مطالبة الإيمان بهذه القضايا موجود في كلام الأوّلين، وهو كلام قديم بلى عليه الزمن الجديد، كلام ليس في مستواه وهو يترفع عن تصديقه.

ح - **سورة القلم:** (**أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ* إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**)(القلم: ١٤، ١٥)

تبدأ سورة القلم بالقسم بما "**يسطرون**"، فقد أقسم سبحانه بهذا التسطير الذي يُسطّر القوانين والحقائق لكلّ ما في الوجود، تماما كما يُسطّر أعمال الإنسان وأقواله ليُحاسبه عليها، تردّ السورة في مستهلها على اتهامهم الرسول بالجنون، وحسب آيات القرآن فإنّه لا يُقال لأيّ رسول "مجنون" إلاّ في قضية واحدة حصراً هي كونه يدعو إلى جعل الآلهة إلهاً واحداً ونفي الأنداد والأرباب مع الله، أي إحالة كلّ المظاهر الطبيعيّة الفاعلة فيهم والمتناقضة ظاهراً في تخصّصاتها وتفرّعاتها إلى ربٍّ وإله واحد، فهذا جنون في نظرهم المُكابر (**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**)(ص:٥)، لا يجدون ردّا عليها إلا باتهامه بأنّ دعوته من مزاعم أساطير الأولّين، سمعوا بها سابقا وجاء هو يُكرّرها.

ط - **سورة المطففين:** (**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ* الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ* وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ* إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**)(المطففين: ١٠- ١٣)

إنّ ما تدعو إليه آياتُ القرآن المتلوّة، بالإضافة إلى الدعوة إلى وحدانية الله، والاستعداد للرجوع إليه للجزاء في يوم الدين للفصل بالحساب واستلام الجزاء، فإنّها توجّه إشارات خاصة لوجهاء القوم وكبرائهم بالامتناع عن الاعتداء والآثام، حالة التذكير التي فرضتها الدعوة المحمدية بقوة بهذه المعاني والمضامين تجعل المستكبرين والمكذّبين يردّون بمزيد من الاستكبار والتكذيب، فيقولون بأنّهم يرون الأمر واضحا جليا، فكلّ ذلك موجود فيما سطّره الأوّلون من ملاحم وأشعار (أساطير)، ولا جديد

مُقنع، وتفسير ما يحدث هو ببساطة أنّ هذا الرجل يدّعى أنّه رسولٌ من الله بكلامٍ استلّه من أساطير أولئك الأقدمين؟!

نخلص من ذكر "أساطير الأوّلين" في القرآن الكريم إلى النتائج التالية:

١. قضايا الرسل في جوهرها الاعتقادي الذي يدعو إلى التوحيد الخالص، وفي بعدها الأخلاقي بالحثّ على القيم، وبعدها الاجتماعي بالأمر بالعدل والتكافل وصون الروابط الإنسانيّة، جميع هذه القضايا موجودة في أساطير الأولين، وقد أثبتت الاكتشافات الحديثة لآثار المنطقة العربية أنّ مدوّنات المندائيين وأساطير السومريين والبابليين والمصريين وغيرهم وشرائعهم كلّها تؤكّد على التوحيد وتدعو إلى احترام القيم، وفي الجزيرة العربية مازال هناك بقية باقية من هؤلاء، وقد بدا ذلك واضحا في إقرار الرافضين للدعوة بكل ألوانهم (مستكبرون، كافرون، مشركون، متمرّدون وعاقّون) بأنّهم سمعوا بها فيما يسمّى عندهم بأساطير الأوّلين.

٢. لم تردِ الاتهامات لآيات الله بأنّها من "أساطير الأوّلين" إلا على لسان العاجزين الذين منعتهم جملة عوامل أبرزها إصرارهم على التكبّر والعناد، فلم نسمع تلك التهمة مثلا على لسان أهل الكتاب على الرغم من مواجهتهم مع رسول الله، هذا يدلّ على حضور مثل هذا اللفظ في ذلك الزمان باللفظ والمعنى، فأهل الكتاب يعرفون الكثير عن أساطير الأوّلين وحكاياتهم، وليس في صالحهم ذكرها، ويبدو أنّ معرفة المعاصرين للرسول (ص) بالأساطير كانت على درجات متفاوتة، فمنهم من كان يعلم ما بها من تفاصيل وربّما احترمها وآمن بها وهم الأحناف الذين بقوا على عبادة التوحيد اعتمادا على ما ورثوه من معارف حقّة عبر السنين الطوال، هؤلاء آمنوا برسول الله ومثّلت دعوة الرسول تعزيزاً لما بين أيديهم من معلومات ورثوها من الأوّلين، فمن الأحناف كان الأرقم بن الأرقم وقسّ بن ساعدة وغيرهم، ومنهم من عرف فقط أنّ الأوّلين كانت لديهم أساطير، وأنّها ليست إلا شيئا من إرث الماضي المتخلّف، يترفّعون عن الاستماع لها فضلا عن الإيمان بها، كأمثال الوليد بن المغيرة ذي المال والبنين المذكور في سورة القلم.

٣. نفى سبحانه في كتابه عن نبيّه (ص) بآيات صريحة ما ادّعوه عليه أنّه مجنون أو مفتون أو شاعر أو كاهن أو ساحر، كما نفى عن القرآن أنْ يكون مفتَرَياً، أو ناقلا لمعلومات اكتتبها من القدماء، أو أنّه قول شيطان رجيم، أو أيّ شيء آخر، لكنّه لم ينفِ وجود ذلك المضمون ولا مرّةً واحدة في أساطير الأولين، إنّما اكتفت جميع الآيات بنقل قولهم، لأن مدار الحوار أصلاً في القرآن لم يكن عن الأساطير ومحتواها، فالقرآن أرفع شأنا منها جميعا، وإنّما اتخذ المشركون الأساطير وسيلة لتفسير ما يسمعونه وما يواجهونه من فشل حججهم أمام منطق العقل والصواب، فلجأوا إلى القول بأنّ القرآن من عند محمد لا من عند الله، تذرّعوا بهذه الذريعة دون أن يحسبوا حساب أنّها قد تنقلب عليهم، فهي حجة في صالح ما جاء به محمّد لا في صالحهم، لأنّ الأساطير في الأصل مادة تاريخية ثرية تحكي فكر الإنسان الموحّد الأوّل، وتحتوي على ما يدعّم ويؤيّد مقالة الرسول(ص)، فدعوته لهم بالعودة إلى روح التوحيد الخالص تتفق في جوانب منها مع أساطير العرب الأوّلين التي عبّروا فيها عن عقيدة التوحيد والإيمان بالعالم الآخر، وما رسالة محمّد(ص) إلا تذكرة وإعادة الإنسان إلى الصراط المستقيم الذي سار عليه الأوّلون منذ خُلقَ آدم وكُلّف بحمل الأمانة (**إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً**) (المزمل:١٩).

٤. أثبت سبحانه وجود مدوّنات قديمة وإن لم يسمّها "أساطير"، وسمّاها (**وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ**)(الشعراء:١٩٦)، وفرّق بينها وبين الصحف الأولى (**إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى**)(الأعلى:١٨)، فالصحف المذكورة في آيات القرآن الكريم تُشير إلى كتابات مقدّسة خاصة بالأنبياء أو بالملائكة، لذا فلم تُضف الصحف للأوّلين، بل نُسبَت إلى موسى وإبراهيم، وقيل عن كتب الملائكة أنّها صحف مكرّمة، وذلك لخصوصيتها وقدسيتها، أمّا كلمة "زبر" فمعناها إحكام الشيء وتوثيقه، أو هي كلمة تدل على قراءة وكتابة كما في المقاييس لابن فارس[1]،

[1] – ابن فارس، **المقاييس**، ص ٤٤٧ .

والمزبور تستخدم أيضاً بمعنى المذكور كما في المحيط[1]، وفي القرآن: (**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**) (الأنبياء:١٠٥)، وزبر الأوّلين تشمل كلّ ما أصبح مذكورا عند الأوّلين، المكتوب منه وغير المكتوب مادام مذكورا عندهم ومحفوظاً، والمذكورات تعمّ آثار الأوّلين وقصصهم وحكمهم ورسوماتهم ومدوّناتهم وبردياتهم وغيرها، فزبر الأوّلين بمثابة وسائط حفظ المعلومات عندهم على الألسن كانت أو في الأذهان أو على الجدران أو الرقم والألواح الطينية، وعلى ذلك تقول الآية: (**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ* وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ**) (القمر:٥٢،٥٣)، فالزبر الإلهي إن صحّ التعبير قد تكون وسائط تخزين المعلومات عن حياة كلّ فرد، متعدّدة الأشكال من كتابات ومشاهد مسجّلة وجلود ناطقة وغيرها، أمّا المستطر في الآية فقد يعني أنّ كلّ قول وعمل (وكلاهما يُعدّ "فعْلاً") فعلَه المرء، سيكون محفوظاً بشكلٍ ما وهو وظيفة "الزبُر"، ومهما كان شكل المزبور هذا وحجمه صغيراً أو كبيراً، ففي الوقت الذي هو محفوظ فإنّه مسطور، أي لم يحفظ عشوائياً، بل صُفّ ورُتّب (سُطِّر) في مكانه الملائم له تماماً كالأراشيف المكتبيّة وكمدوّنات الشفرة الوراثيّة، فلن يضيع شيء أبداً، لأنّك متى ما سطّرت ما تُريد إحصاءه لن يفلت من عندك شيء بخلاف ما لو بعثرتها، وهاتان الأداتان التزبير (وسائل الحفظ كالكتابة مثلاً) والتسطير (أي تنظيم الأبواب والفصول وهيكلة مواقع الحفظ) هما سبب بقاء ما يراد حفظه، فالقصائد التي يحتاج كلّ سطر منها للسطر الذي يليه لا يُمكن أن يُنسى سطرٌ منها ويُمضى به، فضلاً أن يُنسى "شطر" لأنّه يُخلّ بالإيقاع والكلّ سيُدرك أنّ شطراً ضائعٌ ولو كان واحداً من مليون. والأوّلون في القرآن الكريم هم الأجيال السابقة مهما ارتفعت درجات ابتعادهم عن الجيل المخاطب وبغض النظر عن إيمانهم أو شركهم، وهنا تذكّر الآيات بأنّ "الأمر" برمّته الذي يدعو إليه القرآن موجود في زبر الأوّلين، أي في مواعظهم وحكمهم وفي قصصهم وأشعارهم ومدوّناتهم ورسوماتهم وغيرها، وتدعوهم لاعتبار ذلك مؤشّراً على صدق الرسالة المحمّدية، باعتباره خطاً إيمانياً متّصلا تشهد عليه وثائق وتراث الأقدمين، وفي

---

[1] - بطرس بستاني، **محيط المحيط**، ص ٣٦٦.

سورة الشعراء عقّب بعدها بقوله: (**أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ**)(الشعراء:١٩٧)، فزبر الأوّلين لا يتضمّن المقروء فقط بدلالة "أن يعلمه" وليس "أن يقرأه"، وخصّت الآية علماء بني إسرائيل وليس عموم بني إسرائيل لأنّ القضية ثقافية بحاجة إلى سعة علم وإطلاع، لا توجد إلا عند العلماء منهم، الذين عُرِفَ عنهم اطّلاعهم على معلومات تُعزى إلى الأوّلين، وتحوي في مضمونها دعوة الرسول(ص)، فهنا تذكير القوم بشكلٍ مباشر أنّ ما يقوله الرسول(ص) ليس بدعاً، بل يمكن أن يجدوه في أخبار وأذكار الأوّلين باختلاف أشكالها، وعدّ هذا التشابه بيّنة على وحدة المصدر الربّانيّ وصدقه واتّصاله.

٥. لم يُسمِّ سبحانه مصادر الحقّ القديمة (الزُبر والصحف) "أساطير الأوّلين"، كما زكّى القرآن الزبر والصحف الأولى ولم يزكِّ الأساطير، ولكنّه دعا إلى الرجوع إلى زبر الأوّلين في قوله: (**وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ**)(الشعراء:١٩٦)، لأنّ الصحف الأولى علمٌ خالصٌ منسوب للّه من غير أن يختلط باجتهادات أو خيالات الأوائل، والآيات لم تذكر أنّه أثر مازال موجودا فلربما يتعذّر الحصول عليه، أمّا "زبر الأوّلين" فهي في متناول الجميع لأنّها تشمل كلّ مذكوراتهم بما فيها الأساطير، والقرآن يدعوهم إلى الرجوع إلى عموم تراث الأوّلين ففيه شواهد على دعوة التوحيد والإيمان بالآخرة وبالرسل والملائكة، والأمر بالعمل الصالح والنظام الاجتماعي السويّ واحترام الطبيعة والتعامل معها على أنّها آياتٌ من الربّ، دونما الحاجة إلى تخصيص الرجوع إلى الأساطير أي أقوال الأوّلين وأشعارهم فقط، بل كلّ تراثهم الصحيح الشفويّ منه والمدوّن والتصويريّ والمجسّم.

٦. لم تُستخدَم "أساطير الأولين" مع أيّ نبيّ آخر غير محمّد (ص)، إذ لا نجد في أيّ من حوارات الأقوام مع أنبيائهم في معرض ردّ دعوتهم ونكرانها أي ذكر "للأساطير"، بينما نجدها تكرّرت لعدة مرات في جدال قوم الرسول(ص) على دعوته، ما يعني:

أولاً: أنّ هذا التراث (الأساطير) هو تراث الأنبياء والمصلحين والأحناف حصراً، فهم الأوّلون المقصودون، وقد كان مشركو وكفّار قريش يدركون ذلك

تماما، وذلك واضح في استخدامهم لفظ "أساطير الأوّلين" ليعلّلوا ما يسمعونه من الآيات، ويكمن السرّ في كلمة "الأوّلين"، إذ لم يكونوا يقصدون بالأولين آباءهم المشركين لأنّهم يفتخرون بالانتساب إليهم وإلى عقائدهم الشركية بل ويصرّون على التمسّك بها وطالما عارضوا التخلّي عنها وردّدوا (**قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**)(المائدة: ١٠٤)، على أنّ قوم نوح حين استخدموا على ما حكاه القرآن جملة (**مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ**) قصدوا فعلاً الآباء الأقدمين الذين عاصروا البثّ الربّانيّ واتّصال السماء، فكلمة (**الأوّلين**) تعني الآباء القدامى في الأجيال العليا العتيقة لا القريبة، وهذا بالتمام ما أخبر به القرآن، فمع أنّه ينفي أنّ ثمّة رسولاً قد أتى لقريش ولآبائهم قبل محمّد (ص) (**لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ**)(يس:٦)، إلاّ أنّه أكّد أنّ آباءهم الأوّلين الغابرين أتاهم مثل ما أتى هذه الذراري المعاندة من تعاليم توحيد وعدل (**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ**)(المؤمنون:٦٨)، فالقرآن يُوجّه الجموع القرشيّة للنظر فيما جاءهم لأنّهم سيجدونه مُطابقاً تماما لما جاء آباءهم "**الأوّلين**"، فعلامَ الصدود والإنكار ولماذا؟ وفي الحقيقة فالمعاندون نظروا في تراث آبائهم الأوّلين ولمْ يدّعوا رؤيتهم مشابهاً لما جاءهم به محمّد (ص) إلاّ ما سمّوه "**أساطير الأوّلين**"، فبهذا نُدرك أنّ الذي أتى قديماً للآباء الأوّلين هو نفسُه (مضمون) ما سمّوه أساطير الأوّلين، سمّوه بذلك عناداً واستكباراً ليضربوا عصفورين بحجر واحد؛ أنّك يا محمّد اختلقته (صياغةً) وأخذت مادّته من أساطير الأوّلين التي هي مُخالفة لطريقة آبائنا ودينهم، وهي "**أساطير الأوّلين**" لأنّها لمْ تأت من السماء بل من تأليفهم وبنات أفكارهم وخيالاتهم، وإلاّ فلو كان البعث والحساب كما تقوله ويقوله آباؤنا الأوّلون، وننكره ويُنكره آباؤنا القريبون بإصرارنا (**مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ❖ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**)(الدخان:٣٥، ٣٦).

إذن فقد قصدوا بـ"الأوّلين" الخط الآخر من سلسلة آبائهم، ألا وهو الآباء الموحّدون، فهم الأوّلون المنتسبون إليهم وإن لم يعد هناك أي ارتباط عقائدي بهم، إلا أنّه ما زال لهؤلاء الأوّلين بقية ينهون عن الفساد بكل أشكاله وقد تمثّل في الوجود التوحيدي الحنيفي في الجزيرة العربية، فالمشركون يعرفون أنّ هناك سلسلة متّصلة من الآباء تحدّثوا عن التوحيد والبعث، ونشروا القيم والفضائل في

هذه البقعة، منهم الأنبياء والصالحون نوح وإبراهيم ولقمان، ومنهم أقوام موحّدة عاشوا في المنطقة وحولها ممن آمن بأفكار الأنبياء وتحمّل مسئولية نشرها. هذا المعنى نجده واضحاً في موضوع الحوار الدائر في آيات "**أساطير الأوّلين**"، فهناك إشارة واعتراف من المشركين ومن الذين كفروا بوجود حديث الموحّدين قبل بعثة الرسول، وبأصالة هذا الحديث وعراقته في الأزمنة السحيقة، هذا عن المشركين، أمّا أهل الكتاب فهم يعرفون معنى "أساطير الأوّلين" تماما، ويدركون قيمتها التاريخية ونسبتها للأنبياء، لذلك لم يتعرّضوا لها أبداً، لأنّهم لم يختلفوا مع الرسول على قضايا التوحيد والبعث بل على قضايا أخرى جرّاء التشوّهات والانتفاخات التي تحصل في الأديان النقيّة مع غياب الأنبياء وفساد الورثة أو ضلالهم أو جهلهم، وهو خارج نطاق موضوعات الأساطير أصلا.

ثانيا: يظهر أنّ "الأساطير" كمفردة تاريخية صار لها وجود حاضر وراسخ في عصر البعثة المحمدية لاشتهار التدوين (التسطير الكتابي) فعرب الجزيرة صار لديهم المعلّقات وسوق عكاظ ذات التبادل الثقافيّ وتجوال القصّاصين والامتزاج الحضاري بعرب الشام واليمن، على الرغم أنّ التدوين لمْ يكن متاحاً فيما سبق من العصور إلاّ بشكل خاص للخواص، فالقوم لم يقولوا عنها "أقوال الأوّلين" إن كان مرادهم الإشارة إلى مقال الأوّلين وحديثهم، وإنّما استخدامهم للفظ "أساطير" في الآيات التسع يلفت النظر إلى علمهم بوجود مدوّنات وليس فقط أحاديث تنسب إلى الأوّلين، وهي معروفة بالأساطير لطابعها المتفرّد المميّز، وهو لفظ موروث من الأوّلين اختصّ بالمدوّنات الذخائر ذات الأصول العقائدية والعلمية المقدّسة، فليست كلّ المدوّنات عندهم أساطير، كما ليس كلّ الشفويّات أساطير بل أحاديث، إنّما الأساطير التي بقي معناها نصّاً قديماً مصفوفاً بعناية (شفوياً كان أم نقشاً) إلى زمن بعثة محمّد تعني تلك المأثورات التي تتغنى بالتوحيد وتحثّ على الإعداد للبعث والحساب، تبيّن ذلك في تكرار ذكرهم للأساطير في مواضيع التوحيد والبعث، علماً بأنّ التوراة شكل من أشكال أساطير الأوّلين التي كُتبَت قبل البعثة المحمّدية بأكثر من ثمانية قرون، والكهنة يعلمون بوجود أساطير كتبها الأوّلون تضم معلومات ومعارف، بل إنّ كثيراً من مضامين التوراة اقتبست من

التراث القديم الشفويّ منه والمدوّن. أمّا شفويّتها الباقية لعصر الرسالة ومشابهتها النسق القرآني صياغةً فقولهم (**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**)(الأنفال:٣١)، فهم نظروا إلى الصياغة والصفّ، وكان يُعرض شفاهاً. وأمّا وجود تدوين (مكتوبة) فقولهم (**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**)(الفرقان:٥)، فالاكتتاب والإملاء يدلّ على وجود الأمرين جميعاً، تحويل الخطّي إلى خطّي بالاكتتاب، والشفوي إلى خطّي بالإملاء.

ثالثاً: إنّ ابتعاد الزمن وتشوّه عقائده وتسفّل عاداته وتردّي أخلاقه جعل من هذه الكلمة نقيصة يلوكها الكافرون بالمذمّة ويعتبرون من يردّد معانيها رجعيا متخلّفا، ويتعلّلون بها تفسيراً لآيات دعوة التوحيد المحمّدية، فيتظاهرون بالترفّع عن الاستماع لمثل هذه الأقوال فضلا عن الإيمان بها، في الوقت الذي كانت تُعَدّ في الزمن السابق القديم رمز عقيدة صحيحة ورقيّ وحضارة وعلم، لا علامة تندُّر، ولم تكن الأساطير وحدها من نالت هذا النصيب، فقد نال الاستهزاء مقامات أنبياء ومصلحين وكتباً سماوية وأخباراً علوية موثوقة، لذا نجد كبار القوم وطغاتهم هم الذين تولّوا نسبة آيات الله وأحاديث الرسول للأساطير من أمثال الوليد بن المغيرة ذي المال والبنين الذي ينقل عنه القرآن الكريم قوله في سورة القلم: (**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ❖ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**)(القلم:١٥، ١٦).

فإذا كانت الأساطير هي المنظومة التي ابتدعها الأوائل للتعبير عن عقائدهم وفكرهم ومعارفهم وأخلاقهم ونظرتهم للكون والحياة والإنسان بما عرفوها وتعلّموها من معلّمين ربّانيين، ثمّ كتبوها باجتهاداتهم وصاغوها بأسلوبهم وحبكوها بقرائحهم الأدبيّة في شكلٍ ذي قالب موسيقى شعري تغلب عليه المحسّنات والتشبيهات والاستعارات والخيال الذي يبتعد أحيانا عن الموضوع والتصويرات التي تصف الحقيقة ضمن أوضاع بشرية محضة، لأنّها كتابة بشرية، فإنّ القرآن الكريم كتاب الله وهو الحقّ المبين، آياته مهيمنة على ما قبله وما بعده، أقسم سبحانه أنّه ينطق بالحقّ، آياته صفيّة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وكلامه يدور مدار الحقّ

المطلق قد أُحكمت آياته على مواضيعها وفي ألفاظها إحكاماً، وفُصّلت تفصيلاً بعناية تامّة، فنزل الكتاب بالحقّ لا بالأوهام المحتملة، وورد ببساطة الحقّ والصدق بلا تمويه ولا خداع ولا تزويق ولا أصباغ ولا محسّنات، وقد أكّد القرآن على ذلك مرارا في آياته، فلا شكّ فيه، ولا وهم، ولا باطل، ولا عوج، ولا ريب، ولا زيادة، ولا سحر ولا شعْر، ولا كهانة، بل الحقّ وليس إلاّ الحقّ، ويكفينا عجبا أنّ كلّ حرف فيه له قيمة ودلالة تشير إلى المعنى والبلاغة المقصودة، وإنّ تغيير كلمة واحدة أو حرف تقلب الأمر رأساً على عقب. والقرآن كتاب الكون والحقّ والتاريخ، فلا يُمكن إلاّ أنْ يصف الحقيقة، إنّه "**انبثاق**" الحقيقة في كلمات، وليس "صياغة" الحقيقة في كلمات، أي هو انسيابٌ طبيعيّ عفويّ، لا اصطناعيّ، هو انعكاسٌ لا رسمٌ وتصوير. وقد دعت آيات القرآن الناس إلى اكتشاف نظامه بالاستماع له والإنصات، وأمرت بتدبّره شرط إزاحة أقفال القلوب والأفهام، كل ذلك لأجل محاولة فهم مراد اللّه سبحانه وتلمّس الحقّ في آياته وترسّم الروح والهدى في معانيه[1].

والقرآن الكريم من وحي ملائكة الرحمن مباشرة، أخذوا على عاتقهم جمعه وقرآنه وحفظه إلى يوم الدين، فلم يكن للبشر بما فيهم أرفعهم مقاماً محمد الرسول(ص) أيّ شأن في صياغته أو تصرّف في تنظيمه أو يدٍ في تنسيقه. وهو إلى جانب كونه كتاباً علمياً راقياً يختصّ بذكر الحقيقة وبيان وجوهها، فهو يبلغ مبلغا فريدا في جمال بيانه وإبداع تراكيبه وحسن نظمه وروعة صوره الفنية وتعابيره الأدبية، فالمحسّنات والتشبيهات والموسيقى وألوان الذوق الفني الرفيع فيه لا زيادة فيها أو ترف، بل في طيّاتها محض الحقيقة، فلا يمكن حذفها أو شطبها، وهو ما يعكس تكاملا يختصّ به القرآن الكريم وحده فهو كتاب علمي وأدبي، قد جمع بين مداعبة الروح ومخاطبة العقل وجمال العاطفة، فامتزجت لغته العلمية مع صياغته الأدبية والعكس بالعكس فأظهرت شكلا ذا وجهتين رصينتين، علمية وأدبيّة في ذات الوقت، مثاني لا يطغى فيه جانب على حساب الآخر.

---

[1] - راجع بحث: **مفاتح القرآن والعقل**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

ومع أنّ القرآن الكريم يلتقي مع الأسطورة في كونه كتابا دينياً مقدّساً، وهو كما الأسطورة يرتبط بالتاريخ والفكر الديني للإنسان ويوثّق صلاته بالعوالم الروحية، إلا أنّ هناك نقاط التقاء أخرى يجدر ذكرها، فكلاهما يسعيان لتنظيم العلاقة بين المخلوق وخالقه عبر رسم خطوط واضحة المعالم لتوحيد الخالق وإخلاص العبادة له بما تتضمّنه العبادة من مفاهيم الطاعة والخضوع والاحترام، إلى جانب أنّهما يرسمان حدود العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان باختلاف دوره على هذه الأرض من خلال اهتمامهما بسنّ التشريعات والحديث عن المعاملات التي تحدّد الأطر لإقامة مجتمع متحضّر في نظامه الروحي والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وهما بالإضافة إلى ذلك يعتبران كتابين يحكيان قصص الأوّلين وأحوال الأمم والأقوام، اهتمّا بسردها لغايات بيان العبرة والاتعاظ بسنن الماضين، غير أنّ الفارق شاسع وكبير بين القرآن الكريم والأسطورة، فالقرآن نزل بالحق المحض الخالص يصدّق ويعزّز ما بين يديه من الكتب الأخرى صحفا أو زبرا أو إنجيلا أو توراة أو صحف أنبياء ومعلّمين تحوّلت فيما بعد إلى تضمينات في صياغات لأساطير مقدّسة، لأنّه هو وحده من بينها جميعا من يحوي الحقيقة الخالصة النقيّة، وهو وحده من له إمكانية الهيمنة على سائر الكتب الأخرى، لأنّه أُنْزِلَ بالحقّ في بيانه وقيمه وعلومه وتشريعاته وعباداته ومعاملاته (**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**)(المائدة: ٤٨).

الفصل الثالث

تفسير الأساطير وفهمها

تمهيد

قلنا سابقاً، أنّ للأساطير جوهراً بحاجة إلى الدراسة الواعية لاستخلاص المادة التاريخية الكامنة في معانيها، ولا يمكن الوصول إلى هذا اللبّ ما لم تكن منطلقاتنا التي نبتدئ بها صحيحة، يركّز الفصل على مناقشة مشكلة تفسير الأساطير وفهمها، ويسعى لتقديم ملاحظات وتوصيات لتحقيق تفسير ووعي أفضل للأساطير. وفي ضوء التوصيات المقدّمة في البداية، يختتم الفصل بعرض عدد من الأسماء الواردة في الأساطير في محاولة لتقديم فهم آخر وترجمة مغايرة لما هو دارج لدى أكثر المؤرّخين لهذه الأسماء بعد المقارنة بالترجمات الدارجة حاليا لها.

أولاً- كيف نفهم الأساطير

وُجدَت الأساطير مكتوبة على الرُقُم والألواح الطينية واستُخرجَت من الخرائب وبين الأنقاض، وعلى الرغم من أنّ معظم الأساطير لم تصل كاملة، فقد فُقدَت بعض سطورها بسبب تعرّضها لعوامل التعرية كونها كتبت على الطين وبقيت تحت الأرض أحقابا طويلة تصل إلى آلاف السنين، إلا أنّ هناك مشكلة أهمّ واجهت المؤرّخين وهي مشكلة تفسير الأسطورة، ولم يكن تلف بعض أجزائها أو ضياع سطورها هو السبب الرئيس في عمليات الترجمة والتفسير، بل إنّ السبب يرجع إلى جملة عوامل أهمّها الفارق الثقافي والتاريخي بين من تولّى الترجمة من الباحثين الغربيين وبين أصحاب الأساطير من جهة، ومن جهة أخرى اعتماد عمليات الترجمة على لغة تختلف في حروفها ومفرداتها عن اللغة التي كُتبَت بها الأساطير، ويعترف صموئيل كريمر الباحث المتخصّص في الآثار والكتابات السومرية بالتقصير عن فهم مقولات الأقدمين قائلا: "سيكتشف علماء عصرنا أنّنا مقصّرون عن فهم المقولات، مقولات أولئك الأقدمين،

إنّهم كانت لديهم قناعة كاملة بأنّهم يعرفون كيف يعمل هذا الكون، وكيف يمشي، وكيف هي مسيرة الحياة"[١].

ويقف الباحثون وعلماء الميثولوجيا أمام مشكلة التفسير حيارى، ففي الوقت الذي يجدون أنفسهم متفاعلين مستمتعين بكلمات الأسطورة ويستشعرون قدرتها على النفاذ إلى أعماقهم حاملة بين طيّاتها رسالة تأبى إلا أن تبعثها بقوة، فإنّهم في المقابل يعانون من العجز عن فهم مراد أولئك القدامى، فيقرّون بأنّ تفسيرهم للنصوص الأسطورية لا يروي في الغالب عطشهم، مهما صالوا وجالوا وأعملوا أدوات التفسير التي بين أيديهم، فلا يزالون بعيدين عن إدراك معاني الأسطورة ومغازيها، ويعترفون أنّ تفسيرهم للأساطير ليس إلا محاولات لا يجزمون بصحتها. يقول صمويل كريمر "واستعنت بكل ما تقدّم من بحوث في إعداد أول ترجمة للوثيقة – أي السومرية المسمارية- بكاملها ونشرت هذه الترجمة في عام ١٩٤٩ في مجلة "الجمعية الشرقية الأمريكية" وهي مجلة لا تنشر إلاّ بحوثاً للمتخصّصين. هذا وأراني في غنى عن القول أنّ عدداً ليس بالقليل من الكلمات والعبارات السومرية من تلك الرسالة لا يزال مشكوكاً فيه وغير محقّق، وإنّي على ثقة تامة بأنّ أحد الأساتذة الباحثين سيُوفّق في المستقبل إلى ترجمة أدقّ وأضبط."[٢] فهذا كلام عالم، اعترف بقصوره في الترجمة ودعا إلى فتح المجال لترجمات أكثر دقة، أما الأستاذ فراس السواح فيرجع لبّ مشكلة التفسير إلى تعاملنا مع الأساطير من واقع العقل الحديث الذي يعتني بالبرهان المرتبط بعمليتي التحليل والتفكيك، ذلك المنطق بعيد كل البعد عن المنطق الأسطوري الذي يحدس ولا يحلّل وينظر إلى البرهان كشأن متضمن في عملية البيان[٣]. وهو كلام قائم على فرضيّة أنّ الأساطير برمّتها اختلاق بشري سواءً كان منبعها الحدس على رأي فراس السواح أو العقل البدائي على رأي الباحثين الغربيّين! وقد بيّنا في الفصل الثاني مخالفتنا على نسبة التخلّف أو الوهم إلى العقل الإنساني في سائر مراحله.

---

(١) – صموئيل كريمر، **من ألواح سومر**، ص١٥٩.

(٢) – صموئيل كريمر، **من ألواح سومر**، ص ٥٩.

(٣) – فراس السواح، **الأسطورة والمعنى**، ص ٣٥.

وأمام مشكلة الترجمة والتفسير نذكر عدداً من الأمور التي يتوجب علينا مراعاتها عند تفسير وفهم الأساطير:

١. لا بدّ من الاعتقاد مسبقاً بوحدة الأساطير في المنطقة العربية وبلاد اليونان، فذلك سيساعد كثيرا على تقديم تصوّر مشترك للفكر القديم، ولا بدّ من النظر إلى الحضارات القديمة في المنطقة العربية على امتدادها التاريخي الذي يصل غربا إلى شمال أفريقيا وشمالاً إلى سوريا وجنوب أوروبا وشرقا إلى العراق والخليج العربي وفارس ثمّ جنوبا إلى اليمن وعمان، لا بدّ من النظر إليها على أنّها منطقة واحدة ذات خصائص مشتركة ارتبطت في أصولها العرقية واللغوية بجذور متشابكة ممتدّة في عصور التاريخ القديم، هذا الأصل يمكن أن يساعد بدرجة كبيرة على سدّ الثغرات التي تطرأ في حالة دراسة كلّ حضارة على حدة. وقد لاحظ بعض الباحثين من أمثال الباحث موسكاتي الوحدة العضوية للحضارات القديمة، وأقرّ بأنّ هذه الحضارات عاشت في مجال جغرافي كبير ولكنّه واحد، دون حروب إبادة أو عداوات قاطعة كما يفعل الغزاة الغرباء[1]. وشكّلت هذه الوحدة عاملاً أساسيّاً أدّى إلى عملية الانتشار والتبادل الثقافي بين أبناء الحضارات المختلفة في المنطقة العربية، وكشفت عن الأسس الثقافية الواحدة لجميع الحضارات، فليس غريباً أن نجد جميع الحضارات اهتمّت بالحديث عن ذات الموضوعات ذات الأهمية الكبرى في مسيرة الإنسانية، فالسومريون قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد تحدّثوا عن فكرة بدء الخلق، بنفس الطريقة التي تناولها الأوغريتيون الذين جاءوا بعدهم بأكثر من ألف سنة، لذلك فإنّ فكرة وحدة الأساطير تُعَدّ عنصرا مؤثّرا في محاولة تقديم تفسير مقنع لها.

٢. إنّ "كتابة" أي لغة لا تعادل اللغة ذاتها، لأنّ اللغة هي دائما بناء حي أعلى كثيرا من إمكانية حصره كتابيا، إذ اللغة هي الكلام بإضافة كلّ ما يصاحبه من حركات جسدية وتوريات وتلميحات ومعانٍ باطنة مشتركة بين المتحدث والمتلقي بالإضافة إلى الانفعالات والتداعيات التي يستثيرها قول معين بطريقة معينة لدى

---

[1] – يوسف أحمد داود، **الميراث العظيم**، ص ١٠٩.

أبناء اللغة الواحدة، فمن الطبيعي أن تقفَ الكتابة عاجزةً عن أداء كلّ ذلك حتى بين من يتخاطبون بلغة واحدة مشتركة[1]. وفي الأساطير وجد الدارسون أشكال كتابة بدائية اندثر استعمالها ومستعملوها منذ أزمنة بعيدة، وبعد فترة زمنية من العثور عليها اهتدوا إلى قراءتها بدلالة لغات أخرى شبه مندثرة كالهيروغليفية اليونانية أو بدلالة لغة فارسية ميتة كما في السومرية، فلا غرابة أن يقع المترجمون في متاهات ينتج عنها أخطاء في الترجمة خاصة وأنّ من تولّى عملية الترجمة هم من الدارسين الغربيين الذين لا يمتّون للغة ولا لثقافة ولا لحضارة أصحاب الأساطير بصلة، ولنا أن نتخيل كيف ستكون الترجمات؟! إنّهم عجزوا في الغالب عن تفسير تلك الأساطير وفهم أسرارها، وبالتالي وجّهوها غير التوجيه الذي لأجله وضعت ودُوّنت، لأنّ أقدر الناس على الترجمة والتفسير بعد هذه الأحقاب الطويلة، هم الذين وُجِدَت الأسطورة بثقافتهم وبلغتهم فقد يتمكّن هؤلاء من فكّ الترميز المستخدَم، مع العلم بأنّ فكّ كلمات الأسطورة شيء وتفسيرها أمرٌ آخر.

إضافة لذلك، فإنّ فوارق الحروف بين لغة الأساطير وبين لغة الترجمة أخرج لنا ترجمات ضعيفة، فكلمة حمورابي مثلاً كتبوها Hamorabi لأنّ حرف الحاء والهاء يعدّ عندهم حرفا واحدا، فهل النسخة الأصلية كانت بالحاء أو الهاء أو بحرف آخر، وما ذنب أولئك إذا كانت لغات المترجمين لا تحتوي على حروف ح، ض، ط، ظ، ذ، ع، الهمزة لتعود إلينا أغلب الكلمات العربية حسبما تتصوّرها عقولهم وترسمها لغتهم، فتصبح جملة مكتوبة بهذا الشكل "إينما إيلي- ش" إلى جملة " حينما في الأعلى" حيث إينما تترجم إلى حينما، "، ويترجمون "نطر" (أي الحارس الرقيب والناطر/الناظر) إلى "نتر" Ntr فتموت الـ "ط" لتقف بدلاً منها الـ"ت" وبسبب عدم وجود حرف "ع" في لغاتهم يترجمون أعلى إلى Ili وتعود إلينا "إيلي"، وبسبب عدم وجود "ض" يترجمون أرض إلى Ard وتعود إلينا مشوّهة "أرد" ولأن لغاتهم لا تحتوي على "ح" و"ص" يترجمون حمص إلى "إيميس" Emis فتعود

---

[1] - يوسف أحمد داود، **الميراث العظيم**، ص ١١٣.

إلينا إيميس، وحماة تصبح Emat إيمات و"دمشق" ديماشكي Dimashki ونتلقفها غريبة عن لغتنا.

وعلى هذا المنوال، ترجمت الكلمة المتكرّرة في الأساطير "ذي-نجر" أو "dingir" إلى آلهة، على أساس وجود سبقية لدى المترجمين أن آباءنا في المنطقة كانوا وثنيين متعدّدي الآلهة يعيشون الخرافات والأوهام، وبالعودة إلى اللغة العربية نجد أنّ من معاني "نجر" الأصل (أي المنشأ)، وهي أيضاً اسمُ علَمٍ لأرض مكّة والمدينة من وسط منطقة السراة[١]، وهناك "نجران" البلد الذي يقع جنوب الجزيرة العربية. فذي نجر (دنجر) التي ترجمها المترجمون أنّها أرباب أو آلهة، تعني إما أنّها صاحب الأصل، سَيّد مكة، أو المكّي، أو "السُراة" العُلويّون أنفسهم أي الكبار والخلاّقون والمسئولون الأوائل عن صياغة الأشياء وإنشاء أصولها، إذ "نجْر" لُغةً هو الصناعة والإنشاء والتسوية، وبحسب اللهجة الكنعانية هو "النحت" أيضاً[٢]، ومن "مكة" وما حولها من أرض السراة تمّ تسوية الأرض، والكائنات، ثمّ البشر، ثمّ الإنسان، ثمّ انطلقت بعثات الأنبياء منها، فالخطّة الربّانية وأيادي التسوية والنحت والصقل والتهذيب والصياغة (النجر) وبعثات الأنبياء والمعلّمين كانت تنطلق من هناك.

وإنّه لأمر مزر بحالنا الثقافي أن يتناول الدارسون العرب للأساطير العربية ترجمات الغربيين دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء النظر في صحّة الترجمة المصدّرة لنا منهم، لأنهم يأخذون ترجماتهم واجتهاداتهم كعلم مسلّم وموثوق به، على الرغم من أنّ الغرب أنفسهم من طلبة وأكاديميين ما يزالون يتناقشون في صحّة الترجمات الصادرة، ويقدّمون أطروحات ويطوّرون ويقترحون، فالتسليم المطلق للترجمات والتفسيرات الغربية والتي وسمت شعوب المنطقة بأشكال الضلال والإباحية توقع الباحثين العرب في مشكلة حقيقية.

---

(١) - بطرس البستانيّ، **محيط المحيط**، ص ٨٨٠.

(٢) - يحيى عبابنة، **اللغة الكنعانيّة**، ص٤٣٣ .

ثم أنّ المترجمين العرب حينما ترجموا الأساطير من اللغة الإنجليزية المنشورة إلى اللغة العربية، حدثت مشكلة أدّت إلى ضياع النص الأصلي، لأنّ النصّ الأصلي للأساطير كُتِبَ بإحدى اللهجات العربية بحروفها الاثنين والعشرين، وهي (أبجد، هوّز، حطّي، كلمن، سعفص، قرشت)، ولمّا كانت الترجمات تعتمد على اللغة الإنجليزية التي لا تفرّق بين حروف الألف والحاء والعين والهاء، ولا بين حرفي الكاف والقاف، كما لا يوجد فيها حرف الطاء فيُستبدَل بحرفي التاء أحيانا أو الدال، ما أدّى إلى ظهور نصوص تختلف إلى حدّ كبير عن النص الأصلي وتخلو من روح النص. وسنضرب مثالا على ذلك، فلو ترجمنا إحدى السور القرآنية من الترجمة الإنجليزية للسورة إلى العربية، أفتظهر السورة نفسها؟ وهل ستحتفظ بقوة ألفاظها وروحانية معانيها، لقد جرّبنا في أصغر السور القرآنية وهي سورة الكوثر، فقد أعيد ترجمتها من اللغة الإنجليزية إلى العربية على يد خبير ترجمة، فلم يدرك المترجم على الرغم من سعة إطّلاعه على القرآن أنّه يترجم سورة قرآنية، لم يكتشف ذلك لا أثناء الترجمة ولا بعدها، أمّا الترجمة نفسها فقد أفرزت جملة جديدة ولكنّها ليست سورة الكوثر السورة القرآنية، لقد كانت السورة باللغة الإنجليزية هي:

We have given you plenty* so pray to your Lord and sacrifice* since your opponent is the one who will be lopped off.[1]

أمّا الترجمة فهي:

"**منحناك الكثير، فلتصلِّ لربِّك وتضحي طالما خصمك هو المتنحى بعيداً**"

فأين هذه الترجمة من سورة الكوثر؟ ألم تفقد الكلمات روح النص وكثير من معناه، بل جاء النص المترجم بما لا يمتّ في بعض أجزائه بالأصل بتاتاً، ذلك ما حصل في ترجمة بعض الأساطير، ولو ترجمها خبراء في لغات العرب القديمة من لغتها المكتوبة إلى اللغة العربية القديمة ثم إلى أي لغة أخرى لكان أجدى وأنفع.

(1) - The Quran - http://www.isgkc.org/EnglishQuran/sura108.htm

مثـال آخـر، آيـة (**اهْـدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ**)(الفاتحـة:٦) هـي آيـة واحـدة نقرأهـا كـلّ يـوم ١٠ مـرّات، كيـف سـتكون مكتوبـة علـى أفضـل احتمـال بـدون الصوتيات (حروف اللين الألف والواو والياء):

(هدن صرط مستقم)، طبعاً القـارئ العربـي سيُدرك لأوّل وهلـة أنّهـا "اهـدنا الصـراط المسـتقيم"، لكـنّ الباحـث الغربـيّ سيحرّكها أوّلاً حسـب اجتهاده، ثـمّ قـد يـأتي لنـا بهـا هكذا علـى أحسـن تقـدير (Heden Serat Mus Takim) ولأنّهـم أقنعونـا أنّهـا ليسـت عربيّـة، فسـننقلها اجتهـاداً إلى العربيّـة هكـذا: (هيـدين سـيرة موس تاكم)، فأيّ داهيةٍ عربيّ سيفهم هـذه؟ سيكون داهيـةً فعـلاً لـو عرفهـا أنّهـا (اهدنا الصراط المستقيم)، هذا لأنّه يحتفظ في دماغه بجملة (آية) يكرّرها يومياً عشر مرّات (٥ صلوات × ٢ ركعة)، أمّا لو كانت جملةً لمْ يسمع بها قطّ في حياتـه، فـلا داهيـة يُصـيبها، بـل الداهيـة ستُصـيبنا وسـنقتنع أنّ مؤلّـف تلـك الجملـة أو الأسطورة (السومريّ) هو فعلاً شخصٌ غير عربيّ، بل هنـدو-أوروبّـي، بـل هـو كمـا قالوا شعبٌ لا يُعرف أصله!!!

علمـاً بـأنّ الأسـاطير كُتبَت بطريقـة مرمّـزة تعتمـد علـى منطـوق الكـلام، فلـم تلتزم بدقّة التفصيل بين الحروف المختلفة كما أنّها خلت من حروف الجـر وأدوات الـربط والتعريـف، وربّمـا تسـاوى بعض الحـروف فيهـا مـع حـروف أخـرى تشـترك معها في مخرجها، فقد تُكتَب التاء في الرسم الكتابي عوضا عن الدال، والسين قد تُكتَـب في مكـان الشـين والعكـس صـحيح، لأنّ المـدوّنات لم تكتـب بالفصـحى بـل باللهجة التي قيلت فيها بما فيها من إقلاب وتبديل بين حروفها، ذلك الأمـر الـذي لم تراعـه الترجمـات، وهـو أحد أسـباب وجـود ترجمـات مختلفـة للنصّ الواحـد، أو تعـديل النصـوص مـرارا كمـا هـو معـروف، ولـو تُرجمـت مـن لغـة الألـواح إلى اللغـة العربيـة القديمة لتمّ تجاوز كثير من المشكلات.

هذا مع العلم أنّ الأوّلين كتبوا الأسـاطير لزمانهم وبلغة أشبه بلغـة الاختـزال أو الرمـوز في عصـرنا الحـالي، أفنتصـوّر أن يقـدّم مـن يـأتي بعدنـا بـألفي عـام معـاني دقيقة لمجموعة من الرموز المرسومة علـى ألـواح حديديـة وجـدها تحـت الأنقـاض، أكان سيفهم رمـز "إتجـاه معـاكس" أو "ممنـوع التجـاوز" أو غيرهـا ممـا يُعـرَف لـدينا

اليوم بالإشارات المرورية، وهل نفهم نحن لغة الاختزال أو Shorthand تلك اللغة الخاصة التي لا يتمكّن من فكّ رموزها وفهم معانيها إلا من تعلّمها، هكذا هي الأساطير فهي كتابات مقدّسة كتبها المعلّمون والكهنة لأنفسهم ليقرأوها بعد ذلك ويسهبوا في شرحها للناس في الاحتفالات والمناسبات، واستخدموا في كتابتها لغة تعتمد في الأساس على الرموز والإشارات، واحتفظوا بها داخل المعابد ومكتبات الملوك لكيلا تكون متداولة بين العامة من الناس.

لذا فإنّ محاولة التوصّل لفهم موضوعي للأساطير أمر في غاية الصعوبة يتطلّب مواصفات خاصة أهمّها قدرة الباحث على فهم اللغة العربيّة بكل لهجاتها على اعتبار أنّها اللغة التي كتبت بها الأساطير السومريّة والبابليّة والأوغاريتيّة والمصريّة، بالإضافة إلى ضرورة معرفة حدود استخدام اللغة عند الأولين ووسائلهم في توظيف هذه اللغة للتعبير عن المفاهيم العلميّة والعرفانيّة حسب المستوى الذهني والأدبي والخيالي للمُسطِّر، ومن لم يهتد إلى ذلك لا يمكن له أن يهتدي إلى المفاتيح التي ينفذ بها إلى لبّ الأساطير ليستطيع أن يفكّ ألغازها ويفهم رموزها.

أمر آخر من الجدير ذكره هو أنّ بعض الباحثين وضعوا المعلومات التوراتية أساسا لعمليات الترجمة، فقد كانوا في الغالب يبحثون عن إثباتات لنصوص العهد القديم، وعلى أساسها يتمّ تفسير الأساطير، ولنا أن نتخيّل كيف أثّرت تلك النوايا على تقديم تفاسير نزيهة. نحن لا نقلل أبدا من الجهود العظيمة التي بذلها الباحثون الغربيون في استخراج وترجمة الأساطير التي تمثل وثائق تاريخ المنطقة العربية منذ آدم الإنسان الأول، ولا ننكر ما بذله أولئك في سبيل الإطلاع على تاريخ المنطقة من العمر والمال، ولكن أكان ذلك لأجل محبة خالصة للحقيقة، أم امتزج حبّ الاكتشاف بدوافع الرغبة في تصويب ما تقوله التوراة عن آدم وطوفان نوح وهو الذي أسّسوا عليه أصول الشعوب وتواريخهم ومقاماتهم.

إنّنا ندعو إلى إعادة اكتشاف الفكر الذي كان عليه العرب الأوائل ومعرفة الأسرار التي حملوها والعلوم التي أسّسوها بأيدي وعقول عربية مخلصة تتجرّد عما قاله الآخرون، وتضطلع بالقيام بمهمة كشف وبيان الحقائق، وتتحمّل

مسئولية جادة أمام تراثنا العربي العظيم لفهم ووعي مسيرة آبائنا الأقدمين الذين سبقونا بآلاف السنين؛ ولن يكون ذلك إلا بإعادة اكتشاف وتفسير أساطيرهم، على افتراض أنّ نصوص الأسطورة التي بين أيدينا لم تعطَ حقّها بعد في الترجمة والدراسة والتفسير، إذ أنّ كلّ منْ حاول تفسير الأسطورة إنّما تقيّد بما في يده من ترجمة الباحثين الغربيين للمدوّنات القديمة.

٣. يتوجب علينا لفهم الأساطير العمل على فكّ رموز مجامع الآلهة حيث أنّها تعدّ من أهمّ مفاصل الأسطورة، فلا بدّ من التعرّف على المقصد من قوى الكون والطبيعة التي تؤكّد عليها الأساطير، وفهم الأدوار التي يعتقد الأوّلون أنّها تقع تحت مسئولية تلك القوى، فلفظ "الآلهة" التي وُضعت وضعا على لسان النص من قبل المترجمين وقام عليها نسبة الشرك وتعدد الآلهة عند الأوّلين، مع أنّ المفردة الدقيقة لربما كانت "الأرباب" أو "القوى" أو "المبادىء" كما في بعض الترجمات النزيهة، **فعشتار** مثلا التي عُرِفَت بآلهة الخصب وربّة الحب وقد حار فيها الباحثون، وهي شخصية لها دور رئيسي وحضور قوي في الأساطير كما يبدو من خلال تتبّع دورها عند أصحاب الحضارات القديمة، وهي نفسها شخصية إنانا السومريّة Inanna، وهي إيزيس المصرية وهي حناة أو عناة الأوغريتية وهي كذلك أفروديت اليونانية، فمن هي عشتار؟ عشتار هي شخصية تمثّل مستوى فكريّا مرموزا، ونظاماً هو في الحقيقة نظام كونيّ، طبيعيّ بحْت، به وُجدت المخلوقات واستدامتْ، وهو أيضاً نظام أموميّ، إخصابيّ، رُمِز إليه على أنّها امرأة عاشقة صارمة. هذا النّظام هو الأصل وهو الطبيعيّ لاستمرارية الحياة منذ حالة خلق البشر الأوائل، فعشتار نظام لإدامة النوع البشري بالخصب والتزاوج المشاع الإباحي باعتباره السلاح الوحيد بين الوحوش وظروف الطبيعة القاسية، لكن بعد أنْ أُوجد الإنسان وأُعطي الوعي فقد أُعطي سلاح الإبداع، أي بعد تحوّل البشر إلى إنسان سوي جُعل هذا الإنسان مُسخّراً للطبيعة ولغرائزه غير خاضعٍ لها بل مُخضّع.

يروي لنا التراث تبدّلا في دور عشتار في مرحلة معيّنة، وتصوّره الأساطير في صورة صراعٍ مرمّزٍ بين فكريْن (فكر عشتار) وهو الفكر الغرائزي الإخصابيّ

البحث والذي كان لابدّ منه في مرحلة البشرية الأولى، و(فكر إيل) أي شريعة الله، شريعة القيم والأسرة، وهو الفكر الذي أُريد للإنسان أن يتميّز به عن سائر المخلوقات عبر تكوين الأسرة الواحدة وتقديس الحياة الأسرية بوجود الأب وحضوره إلى جانب الأم لينسلا نسلاً إنسانياً غير همجيّ ولا إباحيّ، ولينسخ ويُزيح عمليًّا على مستوى الكائن الإنساني الإلهيّ نظام الطبيعة الغرائزي السائد، نظام الإخصاب والإباحة والأمومة والنسل فقط (شريعة عشتار)، وهو الذي عُبّر عنه أسطوريّاً بإنقاذ إنكي لأنانا عند السومريين وإيا لعشتار عند البابليين بعد هبوطها إلى العالم السفلي، إذْ أنّ دور "عشتار" أيّ الفكر الإخصابي والزواج العشوائي قدْ هبط وسفُل وانحطّ، ولا بدّ من استبداله بنظام الأسرة والاستقرار الاجتماعي، لأنّه يقف دون رقيّ الإنسان وتطوّر قيَمه وسلوكه، تعبّر عنه الأسطورة بـ"**نُزِع عن الشريعة القديمة صدارتها**"، هذا التحوّل له حضور كبير في الأساطير، فنقرأ في الأسطورة (**لم يعدْ الشاب في الطريق يُخصب المرأة الشابّة، فليرقد إذن الرجل وحده في غرفته، ولتنمْ المرأةُ وحدها إلى جانبه**)، ونرى إعراضا رمزياً لهذا المبدأ تمثّل في رفض الملك البابليّ "جلجامش" إغراء "عشتار"، أيّ رفضه لشريعة العشواء، لأنّه انتقل كما تقول الأسطورة بعد مصاحبته لصديقه أنكيدو من حالة الإباحية إلى حالة القيم والحكمة (**رُفِعتْ عنها جميع أثواب السيادة والسلطان، أيّ "أنانا" لقد صيغتْ قوانين العالَم الأسفل بعناية واكتمال، فلا تُناقشي**)، وليبدأ بعد إذلال "النظام القديم" تحوّلاً "للقوّة الخصبيّة والغرائزية/عشتار"، "**لتلبس ثوب الطهارة**" ولتخدم نظام الحكْمة والأسْرة، نظام الحياة الجديدة (إيا) نظام النقاء والنجاة (أنكي) وشريعة الله (إيل)، وهي قمّة الوجود الإنساني، إذ لهذه الشريعة العليا، تمّ إفراد آدم لحوّاء فقط، وحوّاء لآدم وحسب، وإسكانهما الجنّة الأرضيّة قبل آلاف السنين كما قال تعالى (**يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**)(البقرة: ٣٥).

هذا التحوّل لدى (إنانا/ عشتار- القوّة الخصبيّة) على صعيد الكائن الإنسانيّ الواعيّ، هو الذي حوّلها لممارسة أدوار أخرى تهدف لتطوير نظام الحياة والنهضة، فنراها تعلّم ربّات الأسرة من النساء، النّسج، والزراعة، وممارسة دورها

كخطّابة توفّق بين الرجل والمرأة، تحت اسم (عناة/حنّة/أناة) في أساطير أوغريت، وتُصبح عقيدة "**عشتار**" التي همّها تناسل الناس، "**عشيرة**" أيّ الزوجة والصاحبة، وهي نفسها "**حنّة**" أو حنّاة/حنّات أيّ الزوجة، فالصدام بين الفكر "العشتاري" القديم و"العشيرتي" الجديد، هو في الحقيقة صراع بين عقيدتيْن، بين المنسوخ والنسخ، بين الأرفع والأدنى، بين التقليديّ والجديد، بين التوحيد الاجتماعيّ والشرك[١].

هكذا يمكن أن تفهم رموز وشخصيات الأسطورة ضمن سياق النظام القائم والفكر الإنساني واليد الإلهية التي كرّمت بني آدم وحمّلته أمانة الاستخلاف على الأرض ودفعت باتجاه رقيّه الفكري والاجتماعي والروحي.

٤ . الكلمات دائماً أفقر من الأفكار وأدنى منها، وهكذا كان الأسلوب الذي استخدمه الأقدمون للتعبير عن معتقداتهم وأفكارهم يقصُر في الغالب عن إيصال المعنى الذي يقصدونه خاصة لأهل زمان يبعد عنهم بأربعة آلاف عام أو أكثر، لأنّهم حين عبّروا ورمّزوا وكتبوا أفكارهم لم يأخذوا في اعتبارهم الدارسين الذين سيأتون في الأزمنة المتقدمة بعد آلاف السنين وسيُخضعون تلك التعابير والرموز للدراسة والتحليل بغية فهمها، ولا يتأتي أبداً لأهل ذلك الزمان -حتى ولو أرادوا- أن يكتبوا بلغة مفهومة واضحة تماماً للأجيال التي تليهم بآلاف السنين يتجاوزون بها المتغيرات الهائلة في الظروف الزمانية والحضارية وبأدوات الكتابة البدائية التي عندهم. ولأنّ الكلمات هي الوسيلة للتعبير عن الفكرة، والكلمة دائماً هي أفقر من الفكرة وهي أدنى منها، والفكرة أغنى بكثير من الكلام، لذا فقد قصرت الأساطير أصلاً عن التعبير تعبيراً حقيقياً عن الأفكار، فكيف للكلام مثلاً أن يجد وسيلةً للتعبير عن إله واحد أحد خالق كلّ شيء، يمنع تصويره ولا يُعرف ولا يُرى سوى بالتعبير عنه بكلمات من خلال صفاته التي عرفوه بها فكريا ووجدانيا وليس كتابة وتسطيرا، ولهذا فلم يجدوا في لغتهم من كلام يمكن أن يدلّ على الخالق الواحد سوى أنّه نور الأنوار، ربّ الأنوار، النور المحض، النور الخالق، النور

[١] - راجع بحث: **وعصى آدم**- الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

العلي، واهب الأنوار، ولقد دعاه عرب وادي سوريا الأقدمون وعرب وادي النيل بقمر الكون، فلم يجدوا كلمة أخرى أبلغ من كلمة "القمر" يمكن أن تعبّر عن نور الله، ولم يكونوا يقصدون بالقمر هذا القمر التابع للأرض، وعند الأكاديين والبابليين والآشوريين كانوا يطلقون عليه اسم (سين) وسين تعني القمر، لكن بالطبع لم يقصدوا هذا القمر، وإنما هو القمر الكوني، النور المحض، هو الذي خلق الزُهرة وخلق الشمس، فقد كانوا يعلمون أنّ هذا القمر الذي نراه لم يخلق الزُهرة، ولم يخلق الشمس، بل هو تابع للأرض ويستمدّ نوره من الشمس وأنّه يدور حول الأرض وهو تابعٌ لها، وأنّ الأرض تدور حول الشمس، فـ (سين) هو القمر الكوني، الربّ الخلاّق. إذن لا يمكن الجزم بمراد الأولين من خلال كتاباتهم، ولا يمكن تسليط أدوات القياس التي نفهم بها الكتابات على مدوّناتهم، وينبغي أخذ مقاصد كلام ذلك الزمان ومحدودية كتابتهم وأغراض ترميزهم حين تفسير الأساطير.

الأسطورة هي الوعاء الفكري الأول لأشكال المعرفة عند الإنسان الأول، فقد أثبتت البحوث الآثارية أنّ الأساطير كانت إحدى مظاهر الحضارة التي بناها الأوائل على وجه الأرض، وبسبب الخصائص المشتركة التي جمعت بين أصحاب أساطير البلاد العربية في العراق وسوريا ومصر، يتبيّن لنا وحدة هذه الأمّة وأصالتها، ونجد أنفسنا مطالبين بفهم المعاني المختزنة عند آبائنا الأقدمين لكي نصل حاضرنا بماضينا العريق الذي لا يبدأ عند محطة إشراقة النور الخاتمي على يد سيد المرسلين محمد(ص) وإنّما يمتد مخترقا الزمان السحيق ليصل إلى الفصل الأول من مسيرة الإنسان، المسيرة التي ساهم في بنائها وتشييدها جميع الأنبياء والمرسلين مرشدين ومعلّمين، فليست المرحلة الإسلامية هي بداية تاريخ العرب، وليس ما قبلها -كما يدّعون- مجموعة قبلية بائسة تدمّر بعضها البعض، ولم تكن هناك شعوب نزحت من خارج المنطقة العربية وأسست تلك الحضارات، وهل يمكن لشعب بلا تاريخ ولا أصول أن يؤسّس حضارة بلغت ذروة العطاء الإنساني وأكثره قوة وتقدّما في مختلف المجالات؟ وهل يمكن لمثل هذا الشعب أن يخرج فجأة من واقع القبلية والنزاعات والبدوية ليهيمن على رقعة كبيرة من العالم ناشرا ثقافته وفلسفته وعلومه؟.

فإن أردنا بالفعل أن نسجّل وفاء لذلك التراث فعلينا أن نتحمّل- نحن أصحاب المنطقة- دورنا المطلوب تجاه هذه الحضارات، فليس من اللائق أبدا للباحثين العرب أن يكرّروا ويردّدوا ما يقوله من سبقهم من الأجانب بدءا من الانطلاق من نطاق الأفكار الموسوم بها الفكر القديم كونه يعبد آلهة متعدّدة ويزخر بالخرافات والكائنات الأسطورية الخيالية، مرورا بالقبول بالترجمات إلى التسليم للتفسيرات، كما يتوجّب علينا التعرّف على اللغة العربية وربطها ضمن منظومة واحدة بكل لهجاتها السريانية والفينيقية والعربية العرباء وهي اللهجات التي كتبت بها الأساطير، وبالإضافة إلى ذلك علينا أن ندرس الأساطير بروح الباحث النزيه المريد للحقيقة، القادر على التدبّر واكتشاف ما بين السطور، ولن يكون ذلك للباحث إلا بعد أن يؤمن أولا بقدرات أولئك الأوائل وعقلانيتهم ويسلّم أنّ ما بين يديه هو من نتاج الفكر الإنساني، ويعتقد ثانيا بأنّ الفكر الإنساني ذات طبيعة واحدة ويمتلك نظام صياغة واحدة وإن الاختلاف بين نتاجات الفكر الإنساني عبر العصور لم يكن إلا في أساليب التعبير وما تفرضه البيئة من أدوات وظروف، ثم عليه بعد ذلك أن يمضي في محاولة التوقّع بحدس الباحث للتعرّف على مراد ومقاصد الأوّلين التي ضمّنوها في أساطيرهم.

ثانياً - دلالات الأسماء في الأساطير

انطلق الإنسان المعلَّم الأول من منطقة سلسلة جبال السراة في الجزيرة العربية شرقا وشمالا وغربا، فصنع حضارته في مناطق العراق والخليج العربي وسوريا ومصر وليبيا، فكانت منطقة السراة مركز الإشعاع والمدّ الحضاري عبر التاريخ، ومنها انتشر التمدّن إلى فارس فالهند والصين شرقا، وإلى اليونان وإيطاليا وأسبانيا غربا وعبر المحيط من الشمال الغربي الأفريقي إلى البحر الكاريبي فبنى هناك ما يعرف بحضارة المايا. وفي خلال رحلة الانتشار الحضاري حمل العربي معه فكره وعلومه ولغته، تلك اللغة الربّانية التي تعلّمها الإنسان من ربّه (**عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**)(الرحمن:٤)، فكانت اللغة العربية هي اللغة الإنسانية بما تمتلكه من مقوّمات الحضارة والتطوّر، واستطاعت أن ترتقي بالحالة البشرية وتنقلها إلى الحالة الإنسانية صانعة الفكر

والحضارة، هذه اللغة تعرّضت في رحلة انتشارها وبسبب ظروف التنقّل والاحتكاك بالبشر المتواجدين أصلا في تلك المناطق إلى حالات الاقلاب والإبدال في الحروف، ما أدّى إلى ظهور لهجات جديدة سميت السريانية والفينيقية إلى جانب العربية العرباء التي بقيت في الجزيرة العربية، فالسريانية والفينيقية لهجات عربية، وقد انتشرت السريانية في العراق والخليج العربي وانتشرت الفينيقية في سوريا ومصر ومنها انتقلت إلى اليونان وإيطاليا[1]. فأصحاب الأساطير كانوا يتحدّثون السريانية والفينيقية، وهي لهجات يرجع أصولها إلى اللغة العربية القديمة لغة آدم بحروفها الاثنين والعشرين، فاللغة العربية أكبر وأوسع من اللغة الفصحى المعروفة اليوم، يقول الأستاذ أحمد يوسف داود في كتابه "الميراث العظيم": "وإنّ لغتنا العربية ظلت باستمرار تملأ دائرتنا الحضارية في نموٍ موازٍ لنموها الثقافي العام، باعتبار أنّ هذه اللغة هي الحامل الأساسي لمحمولات الذهنية الواحدة المميزة لمجموعتنا الشعبية التي تتّسم بأنّها كانت دائما وحدة عضوية متجانسة"[2].

وقد تداخلت اللهجات العربية الثلاث مع بعضها عبر سنوات طويلة وبقيت آثارها ظاهرة في اللهجة العامية للشعوب العربية، فاللهجات العامية أوسع من اللغة العربية الفصحى، لذا فإنّنا نجد ألفاظا في كلامنا لا نجد لها أثرا في الاستعمال الفصيح للكلام، وهذا كلّه طبيعي وحتمي في إطار التاريخ الواحد لهذه الأمة. وإنّ ما بين أيدينا من كتابات المنطقة القديمة أي الأساطير وغيرها من المدوّنات ما هي إلا تعبيرات بالصيغ المحلية فأجدادنا قد كتبوا بلهجاتهم المحلية التي لم تكن إلا لغة متفرعة من اللغة العربية الأم، وإن أردنا أن نفهم أساطيرهم فعلينا أن نضع في اعتبارنا أولا اللهجة التي صيغت بها، فليست هي اللغة العربية الفصحى، ثمّ لا بدّ من ملاحظة الأساليب التي يتم التعبير بها، فربّما نجدها تخلو من حروف الجر، أو أدوات التعريف أو الربط، علماً بأنّنا المتحدّثون باللغة العربية نجد صعوبة في قراءة الشعر العامي مع أنّه يكتب بحروف عربية كاملة، فلو أردنا أن نكتب كلمة "الشمس" حسب منطوقنا العامي

---

[1] - راجع بحث: **اللسان العربي**- بعد فطري وارتباط كوني، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

[2] - أحمد يوسف داود، **الميراث العظيم**، ص ١٢١.

سنكتبها "اشمس"، وبعض الشاميين سيكتبونها كما ينطقونها "شمش"، وسيكون من العسير فهم كلمة "هنة" التي تعني بالشامية "هم" ولا أدري كيف سيكتبها المترجم الأجنبي فربما تصبح عنده hena أو ina، ثم كيف ستترجم إلى العربية، فربما تصبح "حنّة" المادة الزراعية الصبغية، أو ربما هي "أنّة" بمعنى الألم والمرض، وربما "عنه" حرف جر مضاف، وعلى ذلك نقيس أثر الإبدال والاقلاب في الكلام العربي، وتنوّع أدوات التعريف التي اختلفت أيضا في اللهجات الثلاث باختلاف مناطقها، وهذا ظاهر بشكل واضح في الكتابات والمدوّنات القديمة.

تعتبر الأسماء مثالا واضحا على اعتماد الأساطير اللهجة العربية المحلية، لدرجة أنّه يمكننا القول أنّ الأسماء هي مفتاح السرّ في فهم كثير من الأساطير، لأنّ الاسم في الأسطورة هو في الغالب لقب يُشتق من واقع أحداث القصة الواردة فيها ويتناسب مع الدور الذي يضطلع به صاحبه، "تشكّل أسماء الأشخاص اللاهوتية المركّبة مصدراً ثريّاً في تزويدنا بمعلومات عن الآلهة السومرية والبابلية، وعن انتشار شعائرها في طول البلاد وعرضها"[1]. والأسماء العربية منذ أقدم الأزمنة وإلى اليوم كلّها صفات وأغلبها ذو طابع ديني، وبغير الرجوع إلى العربية القديمة بلهجاتها السريانية والفينيقية سيكون من المتعذر فهم الأسماء وبالتالي الإحاطة بمراد الأسطورة وفهم مدلولاتها، هذه الحقيقة نجدها في كلّ الأساطير الموجودة في الأرض العربية أو على أرض اليونان، فمفاتيح فك الأساطير لا يكون إلا عبر فهم أبطالها وشخصيّاتها وربط الأسماء بوقائع الأسطورة، فالأسماء في الأسطورة ليست اعتباطيّة بل قصديّة وهي مفتاح روح الأسطورة. سنتناول هنا بعض الأمثلة لبعض الأسماء في محاولة اجتهادية للتعرّف على معانيها من خلال مقارنتها مع الترجمات التي قدّمها المترجمون الغرب.

١. **مردوخ Marduk**: ورد ذكره في أسطورة الخلق عند البابليين المعروفة بـ"حينما في العلا"، وقد اعتبر إله الخصب والزراعة، أصبح سيدا على الآلهة مكافأة له على المعركة التي خاضها ضد تيامت الماء المالح[2]، وهو الذي كلّفته

---

[1] – ادزارد وآخرون، **قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين- في الحضارة السورية**، ص ٢٣.

[2] – قاسم الشواف، **معجم الأساطير**، الكتاب الأول، ص١٦١.

الآلهة كما تقول الأسطورة بخلق الكون ومن ثم خلق البشرية من طين بمساعدة الربّة أورورو، لم يتم الاستفادة من تركيب الاسم للوصول إلى معانٍ أعمق في هذه الأسطورة الأطول عند المعلّمين الأوائل، اسمه مكوّن من مقطعين: مرد- وخ، وربما مرد- دوخ بإدغام الدال، ومرد بمعنى التمرد، دوخ أي دوّخ – فيكون الاسم : مدوّخ التمرّد وهو إشارة إلى مهمته في تنظيم خلق الكون ومقاومة حركة المياه الأولى. وكلمة "مردوخ" بحذف الصوتيّات "مردخ" قدْ تبدو أنّها من الفعل "ردخ"، والردخ الكسر والشدخ، فالمُرْدِخ هو الذي ذلّل الطبيعة وكسر غلواءها، ومثله "رضخ"/مُرضخ، المذلّل والكاسر لحدّة الطبيعة وهيجانها والمروّض لها، فسواءً هو "ردخ" أو "ردغ" (أي صرع) أو "ردع" (أيْ كفّ ودرأ) أو "رضخ" الكسر والترويض، فيبدو من التسمية أو من الفعل الذي قام به "مردخ" أنّه مذلّل ومروّض قوى الطبيعة عن هيجاناتها وطوفاناتها وفيضاناتها، كما أنّه بإمكاننا قراءتها كتركيب (مُر – دخ) والـ "مر" هو السيّد/الربّ، والـ "دخّ" هو الكفّ والمنع والتذليل، والـ "دحّ" هو البسط والتوسعة.

لكنّ الذي يبدو أكثر إقناعاً حسب سياق ملحمة الخلق البابلية، وعلّة بروز تسمية "مردوخ" وتوقيت صعوده إلى الواجهة، هو قضاؤه على تمرّد "تيامت" بالخصوص، وباعتبار أنّ البابليّة ما هي إلاّ أحدى عاميّات لهجات العرب القديمة، فيُناسب أنّها مركّبة من "مَرْدْ – عُقّ"، أو "مَرْدْ – عُوقْ" لكنْ بالنطق العامّي حيث الواو بها إمالة، وحيث القاف تُلفظ كاف أو گ، فنلحظ أنّ "مردْ عوق" أو "مردْ عُقّ" تُلفظ هكذا بلغة مترجميها (Μαρδ–υκ)، والـ "مَرْدْ" هو نفسه "التمرّد" الذي قامت به قوى الطبيعة البدئيّة الهائجة لإغراق النّظام الخلْقي، أمّا "عُوق" فهو المُعيق (حتّى بالفصحى)، والـ (عُقّ) في القاموس هو الذي يشقّ، فمردْعُگ (بنطْق العاميّة) هو الذي "شقّ التمرّد" وأعاقه، و"شقّ" البحر الهائج ببراكينه إلى نصفين، وهو ما تقوله الأسطورة حرفيّاً.

٢. **إنكي/ إنقي/ إنجي Enki**: وهو مبدأ الحكمة والنقاء وهو المُنجي، حيث مرّةً "أنكي" هو "أن- كي" (أنْ/ عيْن: سيّد/عين/مسئول-- كي: أيْ قِيع، لعدم لفظ حرف العين، وهي قيعان الأرض، فهو مُدبّر الأرض من الملائكة،

وأيضاً "عين القاع" هو الماء) أو "أنقي" مسئول توفير المياه النقيّة (العذبة) المعتمد عليها حياة الأحياء خلْقاً واستمراراً، أو "أنجي" وهو المنجي والمُغيث والمُعين والمُعلّم، مثلما نجد حضور أنكي كالقوّة أو الملاك الذي علّم نوح بناء السفينة لإنجائه من الطوفان وعلّم البشر العلوم والحضارة. ومنها **الأنوناكي** التي وردت في أساطير عدّة: أنو: سماء، علويّ، رفيع، سيّد – ناكي: نقي، طاهر، فهم أنقياء السماء، السادة الأطهار، الملائكة السادة الأنقياء/الملائكة الأطهار، يُحدّدون الأقدار في "يوم القدر".

٣. **الأجاجي**: وقد ورد اللفظ في عدّة أساطير منها أسطورة "إيتانا والنسر"، والاسم قريب من اللفظ العربي "أجيج" وهم حسب دورهم في الأسطورة صنف له صلات مع الملائكة الأرباب، فمن الممكن أن يكونوا الملائكة المتأجّجة الذين يُحيطون بالجنّة الأرضيّة/السماويّة، أي هم صنف من الملائكة الزائرة للأرض في رحلة بمثابة "حجيج" منذ القدم، ويمكن أن يصف الاسم طبيعة تلك الرحلة فهي رحلة متأجّجة "أجيجٌ" في سيرها مثلا.

٤. **إنليل**: اختلف الباحثون في معنى "أنليل" فسمّوه "ربّ اللّيل" "ربّ الظلام"، والبعض ترجمه حسب السياق أنّه ربّ الهواء والنسمات، فهي "ان – ليل"، ويبدو أنّ "أن/إن/آن" هي "عين" وتلفظها العامّية بالإمالة ممّا تحتمل كلّ وجوه الكتابات، و"عين" معروفة، هي جهاز النّظر، وهي أيضاً السيّد والشريف والمسئول والمراقب والمُعيّن والحارس، و(نين، نينا، إنان، إنانا، آنان) كلّها قد تكون الزوج للعين (عينين، عينان) وبسقوط العين تُصبح (اينين، اينان/نين، نان).

أمّا لفظة "ليل" فهي إمّا "لـ إيل" أيّ للّه، فتُصبح "ان– لِ– ايل" أيّ عينُ اللّه، المراقب والمسئول المُعيَّن من اللّهَ، وننليل هي القوّة القرينة معه أي المؤنّثة، وهي بهذا تجعل من إنليل آدم، وننليل زوجه. أو أنّ لفظة "ليل" لفظة واحدة غير مركّبة هي "ليل"، فيُصبح "انليل" عين اللّيل، مراقب وسيّد اللّيل، حارس اللّيل، أيّ هو القمر الذي يُنير الظلمات، فكلّ فاتح لأيّ مستوى كونيّ مظلم أو عدميّ يُطلق عليه سيّد اللّيل أي الذي ساد على الظلام وشقّه وأناره، لذلك كان "انليل" يُطلق عليه "نونامنير" "القمر المنير"، ويحمل بذرة "سين" وهو القمر، بل هي الروح التي

تنير بالوعي الظلمات، "فإنليل" هو ضياء الظلام، وعين الله، وروح الله، فلذلك ناسب لآدم وحواء بنفخ الرّوح فيهما وإنارة ظلام الهمجيّة أنْ يُدعيا "انليل وننليل"، كما هو الروح الأعظم وربّ الملائكة وفاتح الخليقة يُدعى "إنليل"، لأنّ آدم على مثال الإله، أو على صورة الربّ.

٥. **إنانا Inanna**: وهي ربّة الحب والخصب السومرية، تلعب أدوارا هامة كمسئولة عن النسل وبقاء العترة، الاسم بمعنى: عينان سواءً تعني العين، أو عين العناية، أو قد تكون عين آن، وآن تعني السماء بالعربية السريانية، أي عين السماء، ورمزوا لها بـ"كوكب الزهرة" لأنّها تبقى كالحارسة الرقيبة في ظلمة اللّيل شرقاً أو غرباً إذا غاب الشمس أو القمر.

٦. **نينماخ/ نين ماح**: في أسطورة "أنكي ونينماخ وخلق الإنسان" حيث تولّي نينماخ خلق الإنسان من طين وصنع منه أشكال البشر الشاذين في خلقهم حسب الأسطورة، يبدو واضحا أنّ الاسم مركّب، ومن الممكن أن يكون مركبا من كلمتي نين- ماخ، ونين بمعنى سيدة وماخ أي مخ ، فالمعنى سيّدة المخّ، أيّ العقل المدبّر.

٧. **أرشكيكالEreshkigal** : هي الإلهة البابلية التي يقدّم لها أمير آشوري القرابين لتحقيق مراده لرؤية العالم الأسفل، هناك توجد أرشكيكال ملكة العالم الأسفل، التي تحدث ضغطا على مجمّع الآلهة في هذا العالم ليسمحوا للأمير بالنزول إلى العالم الأسفل، وبما أنّ الألف والعين واحدة فمن الممكن أن تتقطع الكلمة بهذا الشكل: عرش-كي(أي الأرض)-كال (هي نفسها جال أو جليل)، فيكون معناها عرش الأرض الجليل، أي هي مسئولة العالم السفلي.

٨. **إينمركار**: وهو من شخصيات العالم الأسفل في الأسطورة السومرية، وبتقطيعها تكون إين= عين أي حارس، مرّ= سيّد/ ربّ بالعربية السريانية القديمة، كار= كور الجبل، وحسب الأسطورة فإنّ هذه القوى أي الأرباب تتخاطب فيما بينها، بين القوّة الحارسة لجبل النور العظيم "إينماركار"، وقوّة الخصب الكونيّ "إنانا".

٩. **شوكاليتودا Shukalletuda**: نلاحظ هنا طول الاسم وغرابته بين كلمات الأسطورة التي تتحدّث عن أنانا وبستاني اسمه شوكاليتودا، ونستغرب من اعتباره اسما، فكيف لشعب يُسمّي أسماء بسيطة كنينا، أنكي، أيا، مردوخ، لولو، إيتانا .. كيف له أن يسمّى اسما بهذا الطول، لا سيّما في أسطورة ينبغي حفظها شعبياً وتناقلها شفوياً ويلعب فيها شوكاليتودا دورا رئيسا، فلا بدّ أن يحمل هذا الاسم دلالة ذهنية قريبة إلى الأفهام وفي مستوى الحفظ، "**شوكاليتودا**" يمكن تقطيعها حسب ترجمتها بالإنجليزية إلى (Shuk-alle-tuda) وباعتبار أنّه لا الغرب ولا السومريّون يلفظون العين، فهي بالعامّية: شوگ- اللّي- تْعَدَّى، أيّ الشوق الذي تعدّي وتجاوز بصاحبه إلى الخطيئة، وهو بالضبط ما كان عليه حال البستاني في هذه الأسطورة.

١٠. **سربيتو**: هي الشجرة في أسطورة إنانا والبستاني شوكاليتودا، حيث غرسها البستاني لتكون غطاءا واقيا لا يزول ظلها أبدا، هي باختصار تساوي سر و بيتو أي سرّ البيت، حيث العربية السريانية تضيف الواو في نهاية الكلمة، فالأسطورة تتحدّث عن الصراع بين الحالة البشريّة والحالة الإنسانيّة، وتدعو إلى محاربة الغرائزيّة المنفلتة الخارجة عن قانون الأسرة والالتزام بنظام الأسرة "سر- بيتو" باعتباره نواة هذا النظام.

١١. **عشتار Ishtar**: هي ربّة أو قوة النسل والعترة عند البابليين والآشوريين، حيث أنّ صوت الحرف (ش) يوحي بالامتداد والديمومة، والكلمة فيها إقلاب كما هو الحال في إقلاب الفعل (قَلَب) إلى (شقلب) ليعطي معنى تقلّب تقلّباً متواصلاً، فإنّ (عشتر) هي (عتر) ومنها العترة أي السلالة، جعلوا الشين وسطها، لأنّ قوّة الإدامة ذاتيّة، فصارتْ "عشتر"، وصارت القوّة المسئولة "عشتار"، فهي القوّة الحيويّة التي جاذبت ومازجت وجامعتْ ولاءمت بين الأزواج فألقحتها وأخرجتْ كينوناتها وأدامتها برعايتها ونواميسها، وهي القوّة التي تجذب كلّ زوجين في الوجود المادّي أو الحيويّ، الرجل للمرأة مثالاً، وتُديم النسل والتوالد والبقاء.

١٢ . **جلجامش**: من أشهر ملوك سومر سكن مدينة أور، وتنسب إليه الملحمة الشهيرة التي وجدت باللغة الأكادية، اسمه بمعنى: جلّ وعظم فهو العظيم + "**جامش**": هي جاموس بالإقلاب بين الشين والسين، وللآن بعض اللّهجات العربية تنطقه (ڪَامُوسٌ وڪَامُوش) والنّوع الوحشي منه يُعدّ من أقوى وأشرس الحيوانات على وجه الأرض تهابه حتّى الأسُود، وقُدرته على تخصيب الإناث هائلة جداً، هكذا أرادت الأسطورة أن تصفه، فهو الثور القويّ العظيم، أو الجاموس/ الثور العظيم، لفرط قوّته وفحولته ضمن شريعة الخصب التي تحكمه، حيث تقول الأسطورة: (**إنّ شهوة جلجامش لم تترك عذراء لحبيبها، لا ابنة المحارب، ولا زوجة النبيل**).

١٣ . **إنكيدو Enkidu**: صديق جلجامش الوفي، وحسب الأسطورة قامت الأم أرورو بتشكيل أنكيدو ليكون أسمى من جلجامش ومن ثم يعمل على تقويمه وهدايته، رافقه إلى العالم الأسفل ثم مات فحزن عليه جلجامش كثيرا، حسب دوره في الأسطورة، اسمه مكوّن من المقاطع (إن أو آن أي عيِّن: بمعنى عين/ رقيب/ سيّد/ مسئول + كيدُ: أي قيْد/ أسْر، فباللّهجة العربية هو سيد القيد أو سيّد النّظام الجديد والأسْرة، والمبشّر به ضدّ الإباحة بعثته الإلهة أرورو استجابة لطلب أهالي مدينة أور.

١٤ . **زيوسدْرا** السومريّ: شخصية تذكرها الأساطير السومرية، وهو إنسان تقي صالح تكلّفه الأرباب بحمل الزمرة الصالحة من البشر مع بعض الحيوانات لإنقاذ الحياة، الزاء هي ذاتها الذال في بعض اللهجات العامية، فيمكن أن يكون معناه ذو السدرة، أي صاحب الكوخ والعرشة، وهو لدى البابليّين أيضاً **أوتنبشتم**: أوت- نفشتم، فأوت يعني حوط أو حائط أي بمعنى راعي، نفشتم هي نفس والميم للتعظيم، فيكون اسمه بمعنى راعي النفوس، أو سيد النفوس.

١٥ . **حمورابيّ Hamorabi**: الملك البابلي المشهور، سنّ القوانين العادلة والشرائع الناظمة، اسمه يتقطع إلى حامو- ورابي، أي بمعنى محامي الربّ،

وذلك يتناسب تماماً مع صفاته العادلة دوره الكبير في بناء حضارة بابل على شريعة التوحيد.

١٦. **إيزيس Isis**: هي سيّدة وادي النيل (مصر) في الألف الخامس قبل الميلاد، تتولّى دور محاربة الهمجيّة، وتكريس نظام الأسرة بدلاً من شريعة الأمومة، وهي "حيزيت" على اعتبار أن الألف والحاء واحدة باللغة الإنجليزية، وهي من الفعل "حاز" أي المُبصّرة المُنبّأة الكاهنة، وهو بالضبط الدور الذي قامت به هذه الشخصية الرائدة في مصر.

١٧. **أفروديت**: الإغريقية هي نفسها أنانا السومرية وعشتار الأكاديّة وعناة الأوغريتيّة، أدت ذات الدوّر واتصفت بنفس السمات الشخصية في جميع الحضارات، وهي تعني وجه أو مظهر الخصب (أف- روديت؛ أف/ أنف(مع اختفاء النون في اللفظ): هو الأنف والوجه والمظهر – روديت: روضة)، فمعناها يكون مظهر الروضة.

من هنا تظهر الجذور العربية واضحة في الأسماء، وتكشف بجلاء الأصول العربية لأصحاب الأساطير خلال التاريخ، ولو لم يسلّم الباحثون العرب للترجمات التي قدّمها الغرب، لتمكّنوا من أن يظهروا الأساطير بترجمات أكثر دقة وأقرب للصواب، ومن حقّ هذه الأمة أن تسترجع تراثها وتحتفظ به في ربوعها، بدلا أن يتوزّع بين متاحف أمريكا وأوروبا يتفحّصونه ويقلّبونه ويعيدون قراءته وهم أبعد الناس عنه، فليس بالإمكان أن يكتشف علماء عصرنا أنّهم مقصّرون عن فهم تلك المقولات، كما يدعو صموئيل كريمر الباحث المتخصص في السومريات ما لم يعمل هؤلاء باتجاه إعادة النظر في المعطيات والنتائج التي قدّمها علماء الغرب على أنّها حقائق تاريخ منطقتنا العربية.

الخاتمة

كلمة أخيرة، ربّما ترجعنا إلى نقطة البداية، وهي لماذا الاهتمام بالأساطير؟ ولماذا الدعوة في هذا الوقت إلى إعادة النظر فيها ودراستها واعتبارها جزءا أصيلا من تاريخ أمتنا العريقة؟ سنجيب على هذا التساؤل ولكن قبلا نسأل: أفلم يكفنا القرآن؟ وهل كان القرآن قاصرا لنعتكف على الأساطير نفتش فيها عن حقيقة هنا وهناك رغم ما يحيط بها من أسرار وغموض؟ أعندنا نحن المتأخرون إشارة من القرآن بالرجوع إلى أساطير الأولين لتبيّن سبيل الرشد؟ في يقيننا القرآن وافيا كافيا، ولن تضيف الأساطير على كتاب الله شيئا، ذلك لأنّ كتاب الله العظيم هو الحقّ المبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو فوق الأساطير جميعا، ولا تساوي آية من آياته كلّ ما قيل عبر التاريخ كلّه، وقطعاً سيكون أجدى لنا وأنفع لو بحثنا عن أي حقيقة مجهولة في آياته، القرآن الكريم فيه غنى ونور، والقرآن نفسه لم يدعنا إلى الرجوع للأساطير بل دعانا إلى اعتماد طريق البحث والأسلوب العلمي لمعرفة الحقائق، أراد القرآن للإنسان أن يسير في الأرض ينقّب، يفتّش ويكتشف، إذ سيجد تطابق نتائج سيره مع كتاب الله فتتبيّن له حقيقة سبق القرآن العلم في ذكرها وبيانها، فتتولّد فيه الخشية من الله ويربط حبلا وثيقا بينه وبين كتاب الله وبالأخص حين يكتشف نظاما ومنهجاً جديدا يحفّزه على قراءة وتدبّر المزيد من آياته، (**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)(العنكبوت:٢٠).

ومع اعتبارنا القرآن الكريم حاكما ومحكّما لا يُعلى عليه، إلا أنّنا نهتمّ بدراسة الأساطير، لأنّها تدلّنا بدراستها دراسة نزيهة متفحصة على أنّ الله سبحانه قد اعتنى بالإنسان منذ اليوم الذي أصطفاه وحمّله أمانته وعلّمه "البيان" وأهبطه على أرضه، هذه العناية أخذت بيد الإنسان لئلا يضل ولا يشقى منذ اللحظة الأولى في مسيرته، لعلمه تعالى أنّه بحاجة دائمة إلى هادٍ ونذير، فالإنسان لا يمكن أن يكون له أي شأن

دون الرعاية الإلهية والمدد الإلهي والتسديد الإلهي، مهما بدا له خلاف ذلك ومهما اعتقد أنّه قادر بعقله على كلّ شيء! لقد عرف الإنسان الأول مهمته وأدرك دوره على هذه الأرض فنهض به وسطّره وحفظه وتغنّى به مبيّنا ملامح اليد الإلهية.

نحن نهتمّ بدراسة الأساطير كذلك، لأنّها تثبّت لنا وحدة تراث هذه المنطقة، ولأنّنا نأبى أن نتجاوز تراثنا ونتملّص عن تاريخنا، لعلمنا الذي أخذناه من قرآننا العظيم بأنّه تراث أمة واحدة يقف أمامها الأنبياء (**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**)(الأنبياء: ٩٢)، وأنّه تراث متّصلة حلقاته ومترابطة، يظهر ذلك بجلاء عند إطلاعنا على أحوال الأمم السابقة والشعوب الأولى التي يُنسب إليها بدايات الحضارة الإنسانية، فقد حملت سمات الوحدة في فكرها وثقافتها وحضارتها ولغتها وفي توحيدها وخوفها ورغبتها لخالقها، وكشفت لنا أنّ الإنسانية بدأت من هذه الأرض المقدسة المباركة بآدم المجتبى الذي حمل أمانة التكليف الإلهي وعُلّم البيان فتكلّم العربية، وخطا خطواته الأولى على هذه الأرض، فمن هذه الأرض انطلق مع أبنائه حاملاً رسالته التوحيدية الإنسانية ناشراً لغته وبانيا حضارته في أرجاء المعمورة، وفي هذه الأرض نزل الوحي مبشرا ومذكّرا، ومن ها هنا مرّ جميع الأنبياء. كلّ الحضارات سواء كانوا سومريين أو كلدانيين أو بابليين أو آشوريين أو يمنيين أو فارسيين أو أكراد أو مصريين، كلّها تعود في أصولها إلى مركز الإشعاع الإلهي على أرض الجزيرة العربية. هؤلاء احتفظوا بأفكارهم واهتمّوا في أساطيرهم بقول الحقيقة ونقل الحقيقة وحرصوا أن يكونوا شهودا على الحقيقة، الحقيقة كما هي بدون تزييف وبدون تفاخر وبدون احتكار، لم تشبْهم آفات الحقيقة كما تشوب الإنسان في عالم اليوم، وكما شابت بني إسرائيل من قبل، وهم الذين كان بالإمكان أن يكونوا إضافة مميّزة إلى التاريخ القديم بسبب ما حباهم الله به من عناية وتفضيل، ولكنّهم انحرفوا عما أراده الله لهم بسبب تلك الآفات، فزيفوا الحقائق وتفاخروا بما ليس فيهم، واحتكروا المعارف.

نحن ندعو لمراجعة التراث في هذا الوقت بالذات والأمّة ما تزال عرضة للمطامع والأغراض، لأنّ مراجعتنا للتراث تعيننا على إعادة العزّة للإنسان وإرجاع الاعتبار له، لنذكّره أنّه كان في يوم ما قريبا من الكمال، يوم كان يعيش مستويات رفيعة في

معنوياته ونظامه الأخلاقي والاجتماعي والأسري، قد اكتسب هذا الرقي من مساره الربّاني وارتباطه بخالقه، فمزج العلم بالدين وبنى حضارة وأقام نظاما وسنّ تشريعات تحترم الإنسان وتقدّس القيم والمبادئ، نحن نراجع التراث على أمل أن تدفعنا تلك المراجعة إلى المقارنة بين ما كان عليه الإنسان وما آل إليه، لقد بنى السومريون والمصريون حضارة لا تقلّ رقيّا في مجالات السياسة والاجتماع وعلوم الفلك والهندسة والطب وغيرها عمّا عليه حضارات اليوم، ولكنّهم لم يتخلّوا عن ارتباطهم بالسماء كما فعل إنسان اليوم، فعاشوا توازنا بين عقولهم وأرواحهم وحافظوا على إنسانيتهم في الوقت الذي تراجع إنسان اليوم إلى حدّ كبير في معنوياته وقيمه وأخلاقه.

مراجعة هذا التراث يكشف لنا بأنّ التوراة ليست ألف باء هذه الأمّة فلا حاجة للرجوع إليها، ولا نقصد هنا توراة موسى لأنّها ضمن حلقات الحضارة التي نقصدها، فقد صدّقت توراة موسى ما بين يديها من الكتاب وبشّرت بمن سيأتي بعدها هاديا مرشدا، ولكن نعني توراة الكهنة التي ألغت ما قبلها وكذّبت بما بعدها، هذه التوراة الموضوعة ليست مركز التاريخ واليهود ليسوا أصل الحضارة، فما هم إلا جماعة دفعتهم أطماعهم ونفوسهم المريضة أن يقفوا طوال التاريخ في الاتجاه المعاكس للصدّ عن سبيل الله لأنّهم يريدونها عوجاء. كما أنّ ادعاء الغربيين الماديين في العصر الحديث بأنّ أوروبا هي مركز العالم ومنبع حضارته وبداية التاريخ الإنساني ليست إلا محاولات لتأسيس واقع وهمي لا أصول له لتحقيق مشروع استعماري وتنفيذ نوايا معينة، لأنّ الحقيقة تقول أنّ مشيدي الحضارات القديمة الذين ترجع أصولهم إلى الجزيرة العربية هم الأوائل، إنّهم أولئك الآباء والأجداد الخيّرون الذين حافظوا على اتّصالهم بالله ونشروا الفضائل وتخلّقوا بالقيم واكتسبوا العلوم، وهم المؤسّسون لقواعد الحضارة الإنسانية في كلّ جوانبها، وإليهم يرجع الفضل الكبير في ما نشهده اليوم من تقدّم حضاري، لقد عاش أولئك ببساطة الحقيقة، فلم يلوّحوا رغم إنجازاتهم وبصماتهم الواضحة بمقولات تميّزهم وتفرضهم كشعب مختار، بل عملوا للآدمية ولبني آدم فبقيت أعمالهم وأفكارهم كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وعلى هذا فإنّا أحوج ما نكون اليوم بحاجة إلى مراجعة شاملة لتراثنا لأجل أن نستعيد وعينا لهويتنا، ونتقوّى للردّ على كلّ من يعتبر أمّتنا العربية طارئا على حركة التاريخ، وكلّ من يحاول طمس الحقيقة التي سجّلها التاريخ وحفظتها مدوّنات الأولين في مدنهم وقصورهم، ولنؤكّد على الحقيقة التي يؤكّد عليها عدد قليل من الباحثين الغربيين حين درسوا التاريخ بحيادية، وخلصوا إلى أنّ أوروبا كلّها في تاريخها العام، بدءا من اليونان فالرومان وحتى عصر النهضة، لم تكن إلا امتدادا من جملة امتدادات الحضارة المركزية المستقرة والتي لم تغادر منطقة الشرق العربي. أفسيأتي اليوم الذي نرى فيه أبناء هذه الأمة وقد تجاوزوا ما دسّته أفهام الغرباء في عقولهم، فيفتخروا بامتداد تراثهم إلى مدوّنات المعابد مما حفظه أجدادهم العرب على هذه الأرض الوسط.

وإنّنا إذ ندعو إلى إعادة اكتشاف الفكر الذي كان عليه العرب الأوائل وفهم الأسرار التي حملوها والعلوم التي أسّسوها، لندعو كذلك إلى السعي نحو ربط القرآن بالمدوّنات القديمة على اعتبار أنّها الفصل الأوَّل من فصول التعليم الإلهي على قاعدة أنّها تلتقي مع القرآن في غرضها العامّ وهي الدعوة إلى اللّه الواحد الأحد، وإنّ غرضنا من وراء ذلك هو كشف الحقيقة ولئلا نبقى - رغم مدنيتنا وعلومنا - نعاني من الجهل والنّضوب الرّوحيّ في جوانب سبقنا فيها الأوّلون وتقدّموا فيها علينا؛ ولكي نردّ المعروف إلى أهله بالإقرار بأنّ ما عرفناه اليوم بعد جهد جهيد قد فهمه أولئك قبلنا وأيقنوا به وأرادوا أن ينقلوه بأمانة لمن يلحقهم، وأنّ المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها وجودنا اليوم إنّما ترجع في أصولها إليهم، ولنسلّم بعدها بأنّ الفكر الإنساني ليس إلا فكراً تراكمياً متواصلاً، وأنّنا في عصرنا البعيد هذا نشكّل حلقة من عقد يمثّل سلسلة الحلقات البشرية، وأنّه لا يمكن لنا في أي حال من الأحوال الانفصام عن تلك السلسلة؛ لأنّ هذا الانفصام يعني تفتتها وضياعنا.

قائمة المصادر والمراجع

١ . ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد)، **المقدّمة: تاريخ العلامة ابن خلدون**، ط٣، بيروت: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، ١٩٦٧ .

٢ . ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا)، **معجم مقاييس اللغة**، ط١ [جديدة مصححة وملونة]، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١ .

٣ . إدزارد (د)، بوب (م. هـ) ورولينغ (ف)، **قاموس الآلهة والأساطير**: في بلاد الرافدين (السومريّة والبابليّة) في الحضارة السوريّة (الأوغاريتيّة والفينيقيّة)/ تعريب محمّد وحيد خياطة، ط٢، لبنان، سورية: دار الشرق العربي،٢٠٠٠ .

٤ . إرمان (أدولف)، **ديانة مصر القديمة**: نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة/ ترجمة عبدالمنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، ط١، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١٥/ ١٩٩٥ .

٥ . أمين (أحمد)، **التكامل في الإسلام**، ط٢، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦/ ١٩٨٦ .

٦ . أوفيد، **مسخ الكائنات**/ ترجمة ثروت عكاشة، ط٣، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢ .

٧ . باقر (طه)، **تاريخ الحضارات القديمة**، بغداد: ١٩٨٦ .

٨ . باقر (طه)، **ملحمة جلجامش**، ط٥، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٦ .

٩ . البستانيّ (بطرس)، **محيط المحيط**، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٧ .

١٠ .بشـور (وديـع)، **الميثولوجيا السـورية:** أسـاطير آرام، ط٢ [منقحـة ومعدلـة]، لا بلدة: لا ناشر، لا تاريخ.

١١ .الجزائري (محمد)، **المندائيون الصابئة**، ط١ ، عمّان: المعهد الملكي للدراسات الدينية، ٢٠٠٠ .

١٢ .حسن (محمد خليفة)، **الأسطورة والتاريخ في التراث الشعبي القديم**: دراسة في ملحمة جلجامش، مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧ .

١٣ .داود (أحمد يوسف)، **الميراث العظيم**، ط١ ، دمشق: دار المستقبل، ١٩٩١ .

١٤ .داوود (أحمـد)، **تـاريخ سـوريا الحضـاري القـديم-١** : المركـز، ط٢ ، دمشـق: مطبعة الكاتب العربي، ١٩٩٧ .

١٥ .داوود (أحمـد)، **تـاريخ سـوريا القـديم:** تصـحيح وتحريـر، ط٣، دمشـق: منشورات دار الصفدي، ٢٠٠٣ .

١٦ .ديورانـت (ويـل وايريـل)، **قصـة الحضـارة**، ترجمـة زكـي نجيـب محمـود، ط١ ، بيروت: دار الجيل، ١٤١٢/ ١٩٩٢ .

١٧ .رانفـين (ك. ك)، **الأسـطورة**، ترجمـة جعفـر صـادق الخليلـي، ط١ ، بـيروت-باريس: منشورات عويدات، ١٩٨١ .

١٨ .رشيد (عبد الوهاب حميد)، **حضارة وادي الرافدين**، ط١ ، دمشـق: دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤ .

١٩ .روسـي (بـيير)، **العـرب إنهـاء عصـر الـرق وتوحيـد العـالم**، ط١ ، دمشـق: دار المستقبل، ١٩٨٩(العودة إلى الأصول.)

٢٠ .زكي (أحمد كمال)، **الأساطير**: دراسة حضارية مقارنة، ط١ ، مصر، المنيرة: مكتبة الشباب، ١٩٧٥ .

٢١ .السـواح (فـراس)، **الأسـطورة والمعنـى**: دراسـات في الميثولوجيـا والـديانات المشرقية، ط٢ ، دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠١ .

٢٢ .السواح (فراس)، **مغامرة العقل الأولى**: دراسة في الأسطورة، سوريا وأرض الرافدين، ط١٣ ، دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٢ .

٢٣ .سيدا (عبدالباسط)، **من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري**: بلاد الرافدين تحديدا، ط١ ، سوريا : دار الحصاد للنشر والتوزيع، ١٩٩٥ .

٢٤ .شابيرو (ماكس) وهندريكس (رودا)، **معجم الأساطير**/ ترجمة حنّا عبود، دمشق: دار علاء الدين، ١٩٩٩ .

٢٥ .الشوّاف (قاسم)، **ديوان الأساطير**: الآلهة والبشر، الكتاب الثاني، ط١ ، بيروت: دار الساقي.

٢٦ .الشوّاف (قاسم)، **ديوان الأساطير**: الحضارة والسلطة، الكتاب الثالث، ط١ ، بيروت: دار الساقي.

٢٧ .الشوفي (نزيه)، **دراسة التلفيق الصهيوني واغتيال التاريخ**: كشف الحقائق التاريخية، ج٢ ، دمشق: منشورات اتحاد الكتّاب العرب، ٢٠٠٣ .

٢٨ .عبد الحكيم (شوقي)، **موسوعة الفولكلور والأساطير العربية**، القاهرة: مكتبة مدبولي.

٢٩ .عتيبة (منير)، **الأساطير وخيال الشعوب**، موقع إسلام أون لاين:

٣٠ .علي (فاضل عبد الواحد)، **سومر أسطورة وملحمة**، ط١ ، دمشق: الأهالي للتوزيع، ١٩٩٩ .

٣١ .علي (فاضل عبدالواحد)، **عشتار ومأساة تموز**، ط١ ، دمشق: الأهالي للتوزيع، ١٩٩٩ .

٣٢. القمّي (عباس)، **مفاتيح الجنان**، ط١ [مصحّحة]، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٢/ ١٩٩٢ .

٣٣ .كامبل (جوزيف)، **قوة الأسطورة**، ترجمة حسن صقر وميساء صقر، ط١ ، دمشق: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩ .

٣٤.كريمر (صامويل نوح)، **من ألواح سومر**، ترجمة طه باقر، بغداد، القاهرة: مكتبة المثنى ومؤسسة الخانجي.

٣٥.لابات (رينيه)، وآخرين، **سلسلة الأساطير السورية**: ديانات الشرق الأوسط، تعريب مفيد عرنوق، ط١، دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٠.

٣٦.الماجدي (خزعل)، **إنجيل بابل**، ط١، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨.

٣٧.الماجدي (خزعل)، **إنجيل سومر**، ط١، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨.

٣٨.المجلسي (محمد باقر بن المولى محمد تقي)، **بحار الأنوار**، ط٢، بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣/ ١٩٨٣.

٣٩.مظهر (سليمان)، **قصة الديانات**، ط٢، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٣.

٤٠.**المنجد في اللغة والأعلام**، ط ٢٧، بيروت: دار المشرق، ١٩٧٥.

٤١.هووك (صموئيل هنري)، **منعطف المخيلة البشرية**/ ترجمة صبحي حديدي، ط١، اللاذقية، سوريا: دار الحوار، ١٩٨٣.

ثانياً – الانترنيت:

1. http://www.almubarak.net
2. http://www.god-is-love.net/modules.php1
3. http://www.isgkc.org/EnglishQuran/sura108.htm
4. http://www.islamonline.net/iolarabic/dowalia/fan-48/alrawe.asp
5. http://www.vopg.org/bitmaped/200411/38.htm

ثالثاً - الإلكترونية:

أ - القرآن:

١ – سيمافور للتقنية، **مصحف النور للنشر المكتبي**، الإصدار الثاني، الرياض: المملكة العربية السعودية، ٢٠٠١.

ب - التوراة:

1- Rick Meyers, E-Sword, Ver 7.1.0,2000-2004, http://www.e-sword.net

2- Online Bible Millennium Edition. Version: 1.11.90, Mar 28, 2002, http://www.onlinebible.net/.

ج – أقراص مدمجة:

١ – مركز المعجم الفقهي، **برنامج المعجم**، الإصدار الثالث، قم المقدسة، ١٤٢١هـ.

فهرست المحتويات

المقدّمة.. ١١

الفصل الأوّل: مفهوم الأسطورة ونشأتها وأنواعها ١٧

تمهيد ١٧

أولاً – مفهوم الأسطورة ٢٠

ثانياً– نشأة الأساطير ٢٩

- أسطورة إيتانا والنسر.. مثال للرمز في الأسطورة ٣٣

ثالثاً – الفرق بين الأسطورة والخرافة ٤٠

- عنترة .. حاتم نموذجان أسطوريان.. ٤٣
- جلجامش .. نموذج أسطوري... ٤٥
- قدموس .. سمير أميس .. وطوفان نوح نماذج أسطورية ٤٨

رابعاً – أنواع الأساطير ٥٠

أ– الأساطير التعليمية ٥١

ب– الأساطير الوعظية ٦٠

ج– الأساطير العلمية.. ٧١

د – أساطير الأبطال ٧٨

خاتمة ٨٢

الفصل الثاني: الأسطورة مصدر تاريخي ٨٣

تمهيد ٨٥

أولاً – الأسطورة والتاريخ ٨٥

ثانياً – الأسطورة مصدر معتمد من مصادر التاريخ ٩٦
ثالثاً – الأساطير في القرآن الكريم ١١١
الفصل الثالث: تفسير الأساطير وفهمها ١٢٩
تمهيد ١٣١
أولاً– كيف نفهم الأساطير ١٣١
ثانياً – دلالات الأسماء في الأساطير ١٤٣
الخاتمة ١٥٣
قائمة المصادر والمراجع ١٥٩

سلسلة عندما نطق السراة

١. مفاتح القرآن والعقل.

٢. التوحيد ... عقيدة الأمة منذ آدم.

٣. الأسطورة ... توثيق حضاري.

٤. الخلق الأول ... كما بدأكم تعودون.

٥. وعصى آدم ... الحقيقة دون قناع.

٦. بين آدمين ... آدم الإنسان وآدم الرسول.

٧. نداء السراة ... اختطاف جغرافيا الأنبياء.

٨. طوفان نوح ... بين الحقيقة والأوهام.

٩. مسخ الصورة ... سرقة وتحريف تراث الأمة.

١٠. اللسان العربي ... بعد فطري وارتباط كوني.

١١. جنة آدم ... تحت أقدام السراة.

١٢. ليلة القدر ... عيد الخليقة.

١٣. اليهود وتوراة الكهنة.

الأسطُورَة
توثيق حضاري

هذا الكتاب ينطلق من النظر إلى الحضارات القديمة في المنطقة العربية على امتدادها الجغرافي على أنّها منطقة واحدة ذات خصائص مشتركة ارتبطت في أصولها العرقية واللغوية بجذور متشابكة ممتدّة في عصور التاريخ القديم، ويتناول موضوع الأسطورة باعتبار أنّها شكّلت الوعاء الفكري الأول لأشكال المعرفة عند الإنسان الأول.

لقد روت الأساطير وقائع وأحداث المدن القديمة وذكرت أحوال ملوكها وشخصياتها، كما أنّها حفظت علوماً ومعارف مختلفة عن نشأة الكون وبداية الحياة وخلق الإنسان ومراحل التطوّر البشري، الأمر الذي يدعونا إلى القول أنّ مادة الأساطير هو الحدث التاريخي، هذا الحدث التاريخي ليس مصطنعاً أو متخيلاً، إنّما هو وقائع وأحداث حصلت إمّا من صنع الإنسان، أو من صنع الطبيعة أو من صنع السماء.

ويلقي الكتاب الضوء على لفظ "أساطير الأوّلين" كما ورد في القرآن الكريم، وهو اللفظ الذي ذكره الكافرون بالمذمّة ونسبوه إلى دعوة التوحيد المحمّدية بغية إسقاطها، ولم يلتفتوا أنّهم بذلك اعترفوا بأنّ دعوة الرسول محمد(ص) لم تكن بدعا من الرسل، وهي تتطابق في مضامينها مع ما جاء في الأساطير من مثل الدعوة إلى التوحيد والتذكير بيوم الحساب.

وينظر الكتاب إلى أنّ لكلّ أسطورة قيمة ودلالة وجوهرا وتكمن فيها أسرار ومعان بحاجة إلى التدقيق والتمحيص والتعمّق لإدراكها وفهمها، ويؤكد على ضرورة العودة إلى اللغة العربية القديمة بلهجاتها المختلفة لفك رموز الأساطير بعيدا عن الترجمة القاصرة التي غيّبت الكثير من مراد الأساطير ومغازيها.

